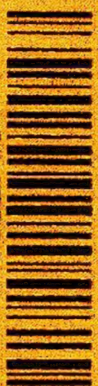
كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم
• العدد ٢٩٩ • أكتوبر ١٩٨٩ •

طه حسين

جنة الحيوان

طه حسين

جنة الحيوان

● العدد ٢٩٩ ● اكتوبر ١٩٨٩ ●



كتاب اليوم

أسسه

مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة :

سعيد سنبل

العدد ٢٩٩ ربيع أول ١٤١٠ هـ
أكتوبر ١٩٨٩ م
تشرين أول

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط
تلكس دولى ٩٢٢١٥ ـ محلى ٩٢٢٨٢

الاشـــتراكات

جمهورية مصر العربية :
قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيه مصرى

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى والافريقى ١٥ دولار امريكى اوما يعادله
باقى دول العالم واوربا والامريكتين واسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٦ ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

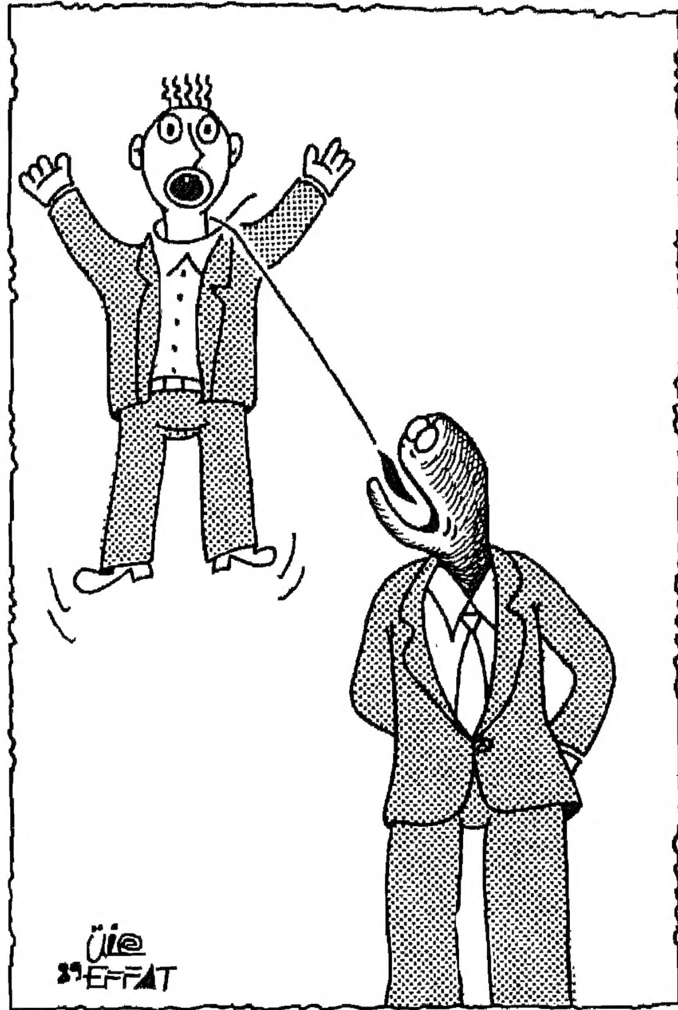
أسعار كتاب اليوم

المغرب	١٥	درهم
لبنان	٥٠٠	ليرة
الأردن	٧٥٠	فلس
العراق	٣٠٠٠	فلس
الكويت	٧٠٠	فلس
السعودية	٧	ريالات
السودان	٤٠٠	قرش
تونس	١٤٠٠	مليما
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	١٤٠٠	ق س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	٨٥٠	فلس
سلطنة عمان	٧٠٠	بيسة
غزة	١٠٠	سنت
اليمن	٨	ريالات
الصومال نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنك
الامارات	٨	درهم
قطر	٨	ريالات
انجلترا	١٢٥	بنى
فرنسا	١٠	فرنك
المانيا	٥	مارك

فى الخارج

إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	روبية
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرونات
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	سنتا
كندا امريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كرويزو
نيويورك واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الغلاف : حسين بيكار
● الرسوم والماكيت : محمد عفت



الثعبان

كان مشرق الوجه ، باسم الثغر ، خفيف الحركة ، فصيح اللسان لا يكاد يجلس إلى أحد أو يجلس إليه أحد ، إلا أحس جليسه منه قلبا يضطرب تحمسا للإصلاح ، ونفسا تتوثب إلى المثل العليا ، وعقلا لا يرى حوله إلا شرا ولا يريد أن يطمئن أو يستقر إلا إذا أزيل الشر ومحيت آثاره ومعالمه ، وقام مقامه هذا الخير المطلق الذى يشمل كل إنسان ، وكل شىء ، والذى يسبغ على من يشمله وما يشمله جمالا حلوا هادئا ، ولكنه قوى ملح كأنه ضوء الشمس ، لا يمنح الأشياء والأحياء جمالا وبهاء فحسب ولكن يبعث فيها وفيهم حياة وخصبا وقوة ونشاطا .

وكان تحمسه للإصلاح وطموحه إلى الخير ودعاؤه إلى العدل يخرج به أحيانا كثيرة عن طوره ، ويتجاوز به الهدوء المألوف إلى شىء من العنف لم يكن المصريون يعرفونه فى ذلك الوقت ، وإذا هو لا يستقر فى مكانه مهما يكن هذا المكان فى دار أو ناد أو قهوة أو ديوان ، وإنما يثب من مجلسه ثم لا يثبت فى مقامه ليتحدث إلى من حوله كما يتحدث الخطيب ، وإنما يذهب ويجىء ويأتى من الحركات بيديه ما كان يخيف جلساءه على ما قد يكون حوله من الأشياء ، وإذا آية الغضب تظهر فى وجهه ، قوية حادة فيظلم بعد إشراق ويعبس بعد ابتسام ، ويتطاير من عينيه المضطربتين شرر مخيف ، وينفجر من فمه صوت هائل يهدر بالجمل التى تتتابع سراعا فى مثل قصف الموج وعصف الريح العاتية ، وإذا أصحابه يأخذهم شىء من الدهش لا يلبث أن يستحيل إلى وجوم متصل وذهول غريب ، لا يدرون أهما يصوران الإعجاب والرضى أم هما يصوران الإنكار والسخط أم هما يصوران الحذر والخوف .

وكان من الحق أم يحذروا أو يخافوا ، فلم تكن الأمور فى ذلك الوقت تجرى فى مصر كما أخذت تجرى منذ كان فى مصر استقلال وحرية ودستور وبرلمان ، وإنما كانت الأمور تسعى متعثرة لا تكاد تنهض إلا لتكبو ولا تكاد تمضى إلا لتقف فقد كان فى مصر احتلال أجنبى يتغلغل سلطانه الظاهر والخفى فى جميع المرافق العامة والخاصة ، وكان فى مصر سلطان لكان وطنى شديد الارتياب عظيم الاحتياط كثير التلون يميل إلى المواطنين مرة وإلى المحتلين مرة أخرى ، ويحاول أحيانا أن يرضى أولئك وهؤلاء ، فلا يظفر إلا بغضب أولئك وهؤلاء..

وكان هذا كله يفسد الجو المصرى ويجعله خانقا منهكا للقوى لان الناس كانوا موضوع النزاع بين هاتين السلطتين لا يكادون يرضون إحداهما إلا وفى نفوسهم إشفاق من الأخرى ، وكان لكل واحدة من هاتين السلطتين عيونها وجواسيسها قد انبثوا فى الأندية والقهوات والدواوين واندسوا فى المجالس الخاصة . فهم يحصون على الناس ما يقولون ثم يصورونه كما يحبون ، ثم يرفعونه إلى السلطان الأجنبى أو إلى السلطان الوطنى . وإذا آثار ذلك واضحة فيما يكون من رضى هذا السلطان أو ذاك ومن غضب هذا السلطان أو ذاك . فكان المفكرون وذوو الرأى يعيشون فى قلق متصل كانما يسعون على الشوك فليس غريبا أن يثير صاحبنا فى نفوس جلسائه شيئا من الحذر والخوف إذا أخذته أزمته الإصلاحية تلك ، وكانت كثيرا ما تأخذه فيثور ، أو قل يستحيل إلى ثورة تريد أن تلتهم كل شىء .

وكان صاحبنا حديث عهد بأوربا قد أقام فيها أعواما متصلة وأتم فيها درسه ورأى فيها حياتها الحرة الطامحة التى لا تقيدها أوضاع النظام الاجتماعى كما كانت تقيد الحياة المصرية فى ذلك الوقت ، ولا تغلها إغلال السلطان السياسى كما كانت تغل حياة المصريين فى ذلك الوقت أيضا ، وإنما رأى حياة سمحة طلقة قد عرفت للإنسان كرامته وللفرد حقه فى أن ياتى ويدع من الامر ما يشاء . وفى أن يرى ويقول ما يشاء مادام لا يؤذى غيره بقول أو عمل . وقد شارك فى هذه الحياة واستمتع بما كانت تمتاز به من السماح واليسر . وكان كغيره

من المصريين الذين يعيشون في أوربا لا يكاد يرى شيئا يعرفه أو ينكره إلا وازن بينه وبين ما يشبهه في الحياة المصرية من قريب أو بعيد ، وكانت هذه الموازنة تغيظه وتحفظه بالطبع لانها كانت تضطره دائما إلى أن يعترف فيما بينه وبين نفسه بأن في أوربا رقيا ماديا ومعنويا ، وبأن لأهل أوربا حرية في القول والعمل . وبأن مصر بعيدة كل البعد من هذا الرقي وبأن المصريين قد حرموا هذه الحرية كل الحرمان ، فعاد إلى مصر وللغيظ في قلبه نار تتوهج وللغيرة على نفسه سلطان لا يكاد يهدىء من ثورته أو فورته ، ومن أجل ذلك كان صورة ناطقة حية قوية للسخط على كل شيء والضيق بكل شيء والحرص على تغيير كل شيء . وقد أقبل الشباب عليه حين عاد من أوربا معجبين بل مفتونين . ولكنهم لم يلبثوا أن فتروا ثم تفرقوا شيئا فشيئا ، منهم من رده عنه الخوف ، ومنهم من رده عنه القصور ، ومنهم من رده عنه السأم . ولابد من الاعتراف بأن أحاديث صاحبنا على عنفها وثورتها كانت تغمض أحيانا فيعجز أوساط المثقفين عن فهمها ، وكانت تتكرر أحيانا أخرى فيسأم السامعون لها من كثرة تكرارها . وأكبر الظن أن صاحبنا عاد من أوربا دون أن يتعمق من أمرها شيئا وإنما غرته المظاهر فأعجب بها وخدعته هذه الحضارة الأوربية ففتن بها ، ورأى في هذا الإعجاب وفي هذه الفتنة شيئا من الامتياز يتملق كبرياءه فأغرق فيهما إغراقا شديدا . وقد كان مالم يكن بد من وقوعه فنذر به السلطان وأشفق منه ونصب له شيئا من كيد خفي حاول أن يثبت له وينفذ منه ولكنه لم يستطع ثباتا ولا نفوذا فاضطر إلى أن يرجع أدراجه ويعود إلى أوربا هذه التى ملكت عليه قلبه ونفسه وفتنته بمحاسنها فتونا . ولم يكد يستقر في أوربا حتى دهمته الحرب الماضية فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم والظاهر انه انتفع بهذه الإقامة الثانية انتفاعا عظيما فقد عاد من أوربا بعد الثورة المصرية الأخيرة فرأى مالم يكن ينتظر أن يرى . لم ير تغيرا في الحضارة المادية ولم ير تطورا ذا بال في الحياة العقلية ولكنه رأى حرية لم يكن له بها عهد ، حرية لا تحفل بمكر الاحتلال الأجنبى ولا باحتياط السلطان الوطني ولا بالعيون

والجواسيس ، ولا بالأحكام العرفية الانجليزية التى ظلت مفروضة على مصر أعواما بعد انتهاء الحرب ، ولا بهذا الاصطدام العنيف الذى كان يحدث من حين إلى حين بين الشباب المصريين والجنود البريطانين . رأى حرية لا تحفل بشىء من هذا ، وإنما تمضى أمامها لا تلوى على شىء ولا يردها شىء ولا تزيدها العقبات والمصاعب إلا قوة واندفاعا . ورأى المصريين يقولون فى كل شىء لا يتحفظون ولا يتحرجون ، ورآهم ينكرون من أمرهم أكثر مما كان ينكر هو قبل الحرب فهم لا يرضون عن الاحتلال الأجنبى ، وهم لا يرضون عن النظام السياسى الوطنى ، وهم لا يطمئنون إلى حياتهم الاجتماعية ، وإنما يخرجون عليها فى رفق مرة وفى عنف مرة أخرى ، وهم على كل حال يتوثبون إلى الإصلاح ، ويطمحون إلى المثل العليا ، لا يتحدثون إذا لقى بعضهم بعضا إلا فى الحق والخير والعدل والحرية والاستقلال والرقى فى الحياة المادية والعقلية .

رأى هذا كله فوقف منه موقف الحيرة لم يدر أيرضى عنه أم يسخط عليه . ولو أنه جرى مع طبيعته الأولى لرضى كل الرضا عما رأى ولمضى مع مواطنيه جادا فى الإصلاح طامحا إلى الرقى مطالبا بالاستقلال . ولكن إقامته فى أوروبا أثناء الحرب واحتماله ما جرته الحرب على الناس من خطوب ، وما ألقت عليهم من أثقال قد اضطره إلى شىء من المرونة وسعة الحيلة وبذل الجهود الملتوية ليتقى الشر ان عرض الشر وليلتمس الخير ان سنح الخير ، فعاد من أوربا للمرة الثانية وقد خلقته الحرب خلقا جديدا . كان قبل الحرب يسبق مواطنيه إلى الرقى والطموح . فأصبح بعد الحرب يستأخر عن مواطنيه ولا يكاد يشاركهم فى توثبهم إلى الرقى والطموح . ومنذ ذلك الوقت اتخذ لنفسه سيرة وسطا فهو لا يستطيع أن ينكر ماضيه وهو لا يستطيع أن يقاوم هذا الاندفاع المصرى الجارف إلى التطور العنيف وهو فى الوقت نفسه لا يحب أن يشارك مواطنيه فيلهج كما يلهجون بالحرية ، ويحرص كما يحرصون على الاستقلال ويطمع كما يطمعون فى مجاراة أوربا حينا ومقاومتها حينا آخر . وقد زاده حرصا على هذه

السيرة الوسط انه قد تعب فى أوربا وشقى بما لقى فيها من جهد وضيق ، وعاد إلى مصر وفى نفسه ميل إلى الدعة وحاجة شديدة إلى الراحة . ورغبة ملحة فى أن يعوض الوقت الذى اضاعه فى اوربا ، وأن يستدرك من أمره مافات ويحقق لنفسه من المنافع العاجلة والآجلة مالم يستطع تحقيقه حين كان ثائرا فائرا مطالبا بالإصلاح . وقد رأى المصريين قد انقسموا فيما بينهم قسمين ، فريق يعتدل ، وفريق يتطرف فلم يرد أن يعتدل مع المعتدلين ، فيعد متاخرا ولا أن يتطرف مع المتطرفين فيتكلف ما يتكلفون من الجهد ويحتمل ما يحتملون من العناء . وقد رسم له هذا كله سيرته الوسط فعرف الثورة المصرية ولم ينكرها ، وأثنى عليها ولم يشارك فيها ، واتخذ لنفسه الأصدقاء والإخلاء من المعتدلين والمتطرفين جميعا ، ولم يقبل فى ذلك مراجعة ولا لوما ، فان الصداقة ترتفع عن السياسة وأعراضها وأمراضها والرجل الحر حقا هو الذى لا تلهيه السياسة عن إرضاء حاجة قلبه إلى الاخاء الكريم والمودة الصافية والوفاء المتين .

وكذلك كنت تراه فى مجالس المعتدلين يسمع منهم ولا يرد عليهم إلا قليلا وكنت تراه فى مجالس المتطرفين ، يسمع منهم ولا يجاريهم إلا بمقدار ، وكنت تراه فى كل حفل يقيمه المعتدلون وفى كل حفل يقيمه المتطرفون يشهد الحفلين جميعا لان له الأصدقاء والاخلاء بين أولئك وهؤلاء . ولكنه كان ماهرا أشد المهارة فى الاستخفاء حين الجد وحين تبدى الخطوب عن نواجذها لأولئك وهؤلاء . هنالك يلتمس القوم صاحبنا فلا يجدونه ولا يقفون له على أثر . وهنالك يسأل القوم عن صاحبنا أهل المعرفة فلا يحدثهم عن ثابت لاق كما يقول الشاعر القديم حتى إذا هدات العاصفة ، واستقرت الأمور فى نصابها واطمأنت القلوب فى الصدور ، نظر المعتدلون والمتطرفون فإذا صاحبنا يغدو بينهم ويروح كعهدهم به دائما مشرق الوجه باسم الثغر عذب اللفظ حلو الحديث .

وقد استطاع من الأمر مالم يستطعه من المصريين إلا الأقلون عددا فأرضى المحافظين والمسرفين فى المحافظة بنوع خاص ، وأرضى

المجددين والغلاة فى التجديد بنوع خاص . ثم جعلت الأحوال تحول والأمور تتغير وتتابعت المحن على مصر ، وكان الطبيعى حين تمتحن مصر فى آمالها وأمانيها وفى حريتها الداخلية والخارجية أن يتطرف المعتدل ويجدد المحافظ ان كان صادقا فى اعتداله ومحافظته لا يتأثر فيهما بالمنفعة ولا يتقى بهما الخوف .

ولكن صاحبنا لم يتطرف وقد تطرف المعتدلون من حوله ، ولم يجدد وقد جدد المحافظون من حوله ، وإنما ظل كعهده دائما مشرق الوجه باسم الثغر خفيف الحركة عذب اللفظ حلو الحديث .

وربما أحس المحافظون المصريون على المحافظة منه ميلا إليهم ، وحرصا على أن تتصل أسبابه بأسبابهم ، ولكن على شرط ألا تنقطع أسباب المودة والاخاء بينه وبين المتطرفين ، من الحقائق المقررة ان صلات الود والاخاء يجب أن ترتفع عن اختلاف الرأى فى السياسة والنظم الاجتماعية . وقد تلقاه المحافظون حفيين به مستبشرين بقربه منهم واتصاله بهم واغضى عنه المتطرفون لانه صاحب وفاء يرتفع بالصداقة عن أغراض السياسة وأمراضها . ثم أصبحت المحافظة فى بعض الأوقات لونا من ألوان الحفاظ والغيرة على مصالح الوطن وكرامته وأصبح من البدع المحبوب أن يتحدث الناس بأنهم محافظون وأن يسرفوا فى النعى على المتطرفين فأظهر صاحبنا انه محافظ يذكر مجد الوطن ويحرص على تقاليده وينكر الخروج على النظام المألوف والسنة الموروثة ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يقصر فى ذات أصدقائه المتطرفين وإنما جاملهم حين كانت تحسن المجاملة وواساهم حين كانت تحسن المواساة ، وضمن بذلك رضاهم عنه واغضاءهم عن غلوه فى المحافظة ، وفى أثناء هذا كله مضت أموره على خير ما يجب . شجعه المحافظون حين كان السلطان يصير إليهم ، وأغضى عنه المتطرفون حين كان السلطان يستقر فيهم ، وعرف عامة الناس وخاصتهم انه رجل لا يحب الأحزاب ولا يشارك فى سياستها ، وان كان محافظ الميل قديم الهوى معتدل السيرة والرأى جميعا .

قلت لصاحبي أتستطيع أن تحدثني بما تريد إليه من هذه القصة التي لا تنتهي . قال صاحبي لا أريد إلا إلى شيء يسير جدا وهو ان الذين يريدون العافية وقضاء المأرب وتحقيق المصالح ، وتجنب الأذى في أنفسهم وآمالهم وأعمالهم يحسن أن يسيروا سيرة هذا الرجل البارع . قلت لصاحبي . ليس كل الناس يقدر على أن يكون ثعبانا وليس من الخير أن تكثر في مصر الثعابين





حديث الأوز

وانا أعتذر إلى القراء من هذا العنوان الظريف الطريف الذى لم أكن أحب أن اصطنعه على مافيه من طرافة وظرف لانه اشبه بأحاديث الفكاهة والمزاح ، لا بأحاديث الجد المر الذى يجب أن نحرص عليه حين نأخذ فى شئون التعليم .

ولكن صديقا أديبا من أصدقائنا الأدباء أراد أن يتحدث عن نشر التعليم فضرب الأوز له مثلا ، يذهب فى ذلك مذهب الفكاهة الساخرة ، وأن كانت شئون التعليم فى هذه الأيام لاتحتمل فكاهة ولاسمرا .

تحدث الصديق الأديب ان صاحبه جحا زعم لقاضى المدينة انه يستطيع ان يأتى بتسع عشرة أوزة فيحبسهن فى حجرة من الحجرات ، ثم يدخل عليهن عشرين رجلا فلا يخرج واحد من هؤلاء الرجال إلا معه واحدة من هؤلاء الأوز ، وقد أنكر القاضى هذا الحديث لما بين هذين العددين من الاختلاف . ولكن جحا ألح فيه وأصر عليه ، فاضطر القاضى إلى أن يستجيب له . وأقبل جحا بأوزه التسع عشرة وأدخل القاضى عليهن عشرين رجلا كان بينهم صراع وقراع سالت له الدماء وشاهت له الوجوه ، ثم جعل الرجال يخرجون رجلا فى أثر رجل ومع كل واحد منهم أوزته حتى خرج آخرهم ، وليس له شىء ، فلما سأل القاضى جحا عن معجزته ، أنباه بأنه لم يرد إلا عبثا ليبين له وللناس أن الديمقراطيـة الصحيحة لا تحـدث المعجزات ، ولا تخلق المستحيلات .

والمغزى الذى قصد إليه الصديق الأديب هو أن الذين يريدون أن ينشروا التعليم بغير حساب ، وأن يحشروا الأعداد الضخمة فى الأماكن الضيقة ، انما يذهبون مذهب جحا حين أراد ان يقسم التسع عشرة أوزة قسمة سواء على عشرين رجلا فلم يبلغ من ذلك ما أراد .

والمثل كما ترى رائع ، بارع وقاصم ، فاصم لاتقوم له حجة ولا يثبت له دليل ، فليست الديمقراطية إذن كلاما يقال ولا هى دعوة تنشر وتذاع وإنما هى أعمال يقدم عليها أصحابها عن بصيرة ويحققونها عن روية . وليس يكفى أن يقال للناس كلوا ليأكلو ويأمنوا شر الجوع وليس يكفى أن يقال للناس تعلموا ليتعلموا ويأمنوا شر الجهل ، وإنما ينبغى أن يهيأ الطعام على قدر الطاعمين وأن يهيأ العلم على قدر المتعلمين فإن لم نفعل كانت دعوتنا إلى الطعام والعلم أشبه بعبث جحا حين أراد أن يقسم تسع عشرة أوزة على عشرين رجلا قسمة سواء .

ومن قبل الصديق الأديب ضربت للتعليم أمثال أخرى تتصل بالطعام فقال قائلون أن الذين ينشرون العلم بغير حساب ويحشرون الأعداد الضخمة فى الأماكن الضيقة كالذين يلقون الطعام القليل إلى الجماعة الكثيرة ، فما هى إلا أن يلقى هذا الطعام حتى يكون الزحام والخصام والاصطدام ثم يفترق الناس وقد أذى بعضهم بعضا ولم يظفر بالطعام منهم إلا قليل .

والغريب أن يقال مثل هذا الكلام فى هذه الأيام التى تواجه الحكومات مشكلة التموين ومعضلة الطعام القليل يلقى إلى الجماعات الضخمة من الناس .. ولا يفكر الذين يقولون هذا الكلام ويكتبونه فى أن حوادث حياتهم اليومية تنقض ما يقولون نقضا . فإن الحكومة انما قامت لتجرى الأمور بين الناس بالقسط ، وتقضى بينهم بالحق وتمكن كل واحد منهم من أن يأخذ نصيبه الضئيل من الطعام القليل لايعدو فى ذلك بعضهم على بعض ولا يظلم القوى منهم فى ذلك الضعيف ، وليس المهم أن تنجح الحكومة فى ذلك أو تخفق وأن تعدل الحكومة فى ذلك أو تجور ، وانما المهم انها انشئت لتجرى أمور الناس بينهم بالقسط ولتطعم عشرين رجلا من تسع عشرة أوزة ، والخطأ الذى انحرف فيه

جحا عن الصواب ولم يكن للقاضي أن يجاريه فيه هو انه اراد ان يقسم التسع عشرة أوزة على العشرين قسمة سواء ، ولو انه أصلح الأوز وهياه للطعام لجاز أن يغذى بهن مائة أو مئات من الناس دون ان يقع بين هؤلاء الناس صراع أو قراع ، ولكن جحا لم يكن مصريا ولا عربيا ، وربما كان له حظ من دعابة ، ولكنها دعابة غير عاقلة . ولو قد كان جحا مصريا عربيا لعرف أن فى مصر أمة تمتاز بخصلتين احداهما القناعة والرضى بالقليل ، والاخرى الإيمان بالمعجزات والكرامات وخوارق العادات .

وليس كل مصرى حريصا على ان ياخذ أوزة صحيحة حية يفرح بها فى بيته وينظر إليها تذهب وتجيء تبسط جناحيها وتقبضهما وترسل فى الهواء صوتها الذى يطرد الملائكة ويدعو الشياطين كما يقول أهل الريف . ليس كل مصرى حريصا على أن يظفر بين حين وحين بجزء أوزة عظيم او ضئيل بل ليس كل مصرى حريصا على أن يذوق طعم الأوز او يشم ريحه ، وإنما المصريون قوم قانعون اكثرهم يرى الأوز ويسمع عنه ، ولكنه لا يبلو طعمه ولا يعرف له مذاقا .

وهو على ذلك لا ينكر الحياة ولا يضيق بها ولا يسخط عليها فإن اتيح له قليل من لحم الأوز أو من مرقه أو من ريحه حمد الله واثنى عليه ، وشكر له هذه النعمة التى لم يكن ينتظرها ولا يرجوها .

وقد أراد الله بالمصريين خيرا فلم يجعل العلم أوزا ، ولم يجعل الأوز علما ، وانما جعل العلم شيئا كهذا الهواء الذى يمتلىء به الجو ويستطيع الناس جميعا أن يتنفسوا ، وجعل العلم شيئا كهذا الماء الذى يفيض به النيل ويستطيع الناس جميعا ان يشربوه ، وقد يكون الهواء نقيا وقد تكدره رمال الصحراء ، فالناس يتنفسونه على كل حال .. وقد يكون الماء صفوا وقد تشوبه الجراثيم فالناس يشربونه على كل حال . وقد يكون الطعام كثيرا وقد يكون قليلا وقد يكون صالحا وقد يكون رديئا ، فالناس ياكلونه على كل حال لانهم لا يريدون ان يموتوا مختنقين ولا أن يموتوا ظامئين ولا أن يموتوا جائعين ، وقد تكون المدرسة واسعة وقد تكون ضيقة ، وقد يكون الاستاذ ممتازا وقد

يكون معتدل الحظ من الامتياز ، وقد يكون الكتاب ميسرا وقد يكون معسرا ، ولكن الناس يتعلمون على كل حال لأنهم لايريدون أن يعيشوا جاهلين ، ومكان وزارة المعارف فى مصر كمكان وزارة التموين . فما رأى جحا التركى أن قيل له ان فى مصر طعاما يكفى لتغذية نصف المصريين وأن نصفهم الآخر يموت جوعا .

وما رأى جحا التركى ان قيل لوزارة التموين ان فى مصر كساء يكفى لنصف المصريين فيجب ان يكتسى نصفهم وأن يظل نصفهم الآخر ضاحيا عاريا . وما رأى وزير التموين أن قيل له مثل هذا الكلام ؟ وما رأى البرلمان أن قال له وزير التموين مثل هذا الكلام . وأى النصفين من المصريين يستطيع أن يأكل وأن يكتسى فيعيش ، وأى النصفين من المصريين يحب ان يجوع ، وأن يعرى فيموت . أما جحا التركى فلن يرى بأسا فى أن يأكل القادر على أن يشترى الطعام ، ويكتسى القادر على أن يشترى الثياب ويموت الذين لايقدرون على أن يشتروا طعاما ولاثيابا . وليس على أحد من ذلك بأس فالله قد قسم الحظوظ بين الناس فجعل بعضهم غنيا يستطيع ان يشترى الغذاء والكساء ، وجعل بعضهم معدما لايستطيع ان يجد غذاء ولاكساء .

ولكن وزارة التموين لاتذهب لحسن الحظ هذا المذهب الآثم وانما تفعل ماتستطيع ليجد الفقراء والأغنياء مايقيم الأود ويستر الجسم وهى تغذو الأعداد الضخمة بالقليل من الطعام وتكسو الأعداد الضخمة بالقليل من الثياب توفق أحيانا ويخطئها التوفيق أحيانا أخرى والفرق بين جحا المصرى وجحا التركى بسيط جدا فجحا المصرى لايفرق بين العلم والطعام وجحا التركى يرى ان من حق الناس أن يأكلوا ويشربوا ويعيشوا والا بأس عليهم من أن يجهلوا ويخضعوا لآفات الجهل فيمتاز بعضهم من بعض ويتفوق بعضهم بعضا ، ويصبح بعضهم لبعض عبيدا وتبعا .

وقد نشأ المصريون على ألوان من العقائد يحدثهم بها جحا المصرى مصبحا وممسيا . فهو يحدثهم بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد أطعم الأعداد الضخمة من أصحابه حتى أشبعهم بالقليل الضئيل من

الطعام الذى لم يكن يكفى إلا لتغذية الرجلين أو الثلاثة ، وهو يحدثهم بأن الله قد أنزل على عيسى مائدة من السماء كانت عيدا لأولهم وآخرهم ، وهو يحدثهم بأن فى ألف ليلة وليلة أوزا لا كالأوز ، ودجاجا لا كالدجاج تؤكل الواحدة منها حتى لايبقى إلا عظمها ، قد جرد من كل ما كان عليه من اللحم ثم يجمع هذا العظم فى طبق من الأطباق ويقال له كلام فينتفض بقدرة الله ويعود كهيأته قبل أن يؤكل أوزا ودجاجا يستطيع ان يجد فيه الجائع شبعا ولذة . فمصدر هذا كله أن جحا المصرى يؤمن بالبركة من جهة ويؤمن بالعدل من جهة أخرى ، ويرى من أجل ذلك أن القليل يجب أن يكفى الكثير وأن الناس كلهم لآدم وان آدم من تراب وانهم جميعا من أجل ذلك سواء فى الحقوق والواجبات يجب أن يأكلوا ويشربوا ويتنفسوا ويتعلموا لايمتاز بعضهم من بعض إلا بالتقوى والأعمال الصالحات التى هى خير عند ربك ثوابا وخير مردا .

فانت ترى فرقا بين التعليم الذى يعلمه جحا المصرى للمصريين والتعليم الذى يلقيه إليهم جحا التركى من مدرسته تلك فى جمبولاد . وقد أراد الله ان يفهم المصريون لغة المصريين والا يفهم لغة التركى منهم إلا أفراد قليلون وهم من أجل ذلك لا يشبهون التعليم بأوز جحا التركى ، وانما يشبهونه بهذه المائدة التى انزلها الله من السماء فكانت عيدا للناس أولهم وآخرهم وبهذا الطعام القليل الضئيل الذى أشبع منه النبى صلى الله عليه وسلم مئات من أصحابه ثم تركه كاملا موفورا ، وبهذا الأوز الذى تحدثت عنه ألف ليلة وليلة بأنه ينفد ليتجدد ، ويفنى ليبقى ويموت ليحيا .

وهم يريدون من علمائهم وأدبائهم ووزرائهم وشيوخهم ونوابهم وقادة الرأى فيهم أن يؤمنوا مثلهم بهذه الآيات ، والا ييأسوا من روح الله فإنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . وهم يريدون من علمائهم وأدبائهم وقادة الرأى فيهم أن يعرضوا عن هذا الهزل إلى الجد ، وعن الباطل إلى الحق . وان يعلموا المصريين ما وجدوا إلى تعليمهم سبيلا فى المدارس الواسعة وفى المدارس الضيقة وفى

الهواء الطلق على الكراسي الوثيرة وعلى الكراسى الخشنة وعلى الحصر وعلى الأرض العراء ، لأنهم يرون الجهل حريقا يلتهم النفوس والقلوب ، ويجب أن يطفا مهما تكن الوسائل التى تتخذ لاطفائه .

وهم يريدون من علمائهم وأدبائهم وقادة الراى فيهم أن يقولوا للدولة انفقى وانفقى عن سعة فإن لم تتح لك الميزانية ماتريدينه فافرضى الضرائب فى غير تردد وفى غير مهل . وعلمى حتى لايبقى فى مصر جاهل ولاغافل ولا معرض للاستغلال مهما يكن المستغل والاستذلال مهما يكن المستذل ، والتسلط مهما يكن المتسلطون ، وانه لمن المؤلم المؤذى حقا ان يحتاج المصريون إلى أن يقولوا هذا للعلماء والأدباء وقادة الرأى .

وقد مرت على المصريين أيام كانوا يساقون فيها إلى المدارس بقوة السلطان ويدفعون اليها دفعا بالإكراه ويفرون بأبنائهم من التعليم . فقد انعكست الآية وتغيرت الأيام وأصبح الجاهلون يطلبون العلم فيردهم عنه العلماء ، فإذا الحوا فى ذلك سيقت إليهم أحاديث الأوز وقصت عليهم قصص جحا وعبثه فى جمبولاد كلا أيها السادة ، يجب أن يخلص العلماء للعلم وأول مراتب الإخلاص له أن ينشروه بكل وسيلة وان يذيعوه من كل سبيل والا يكونوا كهذا البخيل الذى يقول فيه بشار :

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود



قـــــــوة

فى مصر ظاهرة غريبة لست أدرى أتوجد فى غيرها من البلاد أم لا توجد ؟ وأكبر الظن انها ظاهرة طبيعية فى البلاد التى لم يتم تطورها بعد ، ولم تتحضر قلوب فريق من أبنائها تحضرا صحيحا ، وإنما اتخذت من الحضارة غشاء رقيقا يخفى وراءه جاهلية جهلاء ، وقسوة قاسية منكرة ، وهذه الظاهرة هى قسوة الذين لهم باللين عهد حديث ، وغلظة الذين ادركتهم النعمة بعد ان ذاقوا الم الشقاء وبلوا مرارة البؤس والحرمان ينشأ أحدهم . كما تنشأ الكثرة الضخمة من الشعب المصرى فى أسرة شقية بائسة أو فى أسرة متوسطة متواضعة ، فيتكلف أهله ما يتكلفون من الجهد ويحتمل أبواه ما يحتملان من المشقة والعناء ليرفعاه إلى حال خير من حالهما ولينزلاه منزلة أرقى من منزلتهما وفيه هو ما فى الكثرة الضخمة من الشعب المصرى من هذا الذكاء الحاد والعقل الخصب والطموح الى الخير والقدرة على الجد ، فما يزال الابوان يكدحان ويشقيان وما يزال هو يكد ويجد ، وما يزال التعاون بين كدح الأسرة وجد الفتى الناشىء يؤتى ثمره قليلا قليلا ، حتى يبلغ الفتى بعض ما أرادت له الأسرة أو كل ما أرادت له الأسرة وبعض ماأراد لنفسه أو كل ما أراد لنفسه ، وإن كانت حاجة من عاش لا تنقضى كما يقول الشاعر القديم . وإذا صاحبنا فتى موفق موفور قد بلغ من لين الحياة وخفض العيش ما لم تبلغ اسرته ، فعلم وكانت أسرته جاهلة ونعم وكانت أسرته بائسة ، وابتسم وكانت اسرته عابسة . واستقبل الحياة فى رجاء كثير وأمل واسع ، فجعل لايرقى إلى درجة إلا طمع فى أن يرقى إلى درجة أعلى منها وجعل لايظفر بخير إلا حرص على أن يبلغ خيرا أكثر منه ، وأصبحت الحياة بالقياس إليه ميدان سباق الى التفوق لاميدان جهاد لكسب القوت .

هنالك يتنكر لماضيه القريب وينسى تلك الدموع التى سكبتها الأمهات فى كثير من مواطن البؤس والشقاء ، وذلك العرق الذى سكبه فى كثير من مواطن الجد والعمل ، وتلك المواقف الحرجة التى وقفتها الأسرة فى كثير من مواطن الأزمة والضيق ، والتى كانت ترده عن المدرسة لآن الأسرة لم تكن تملك المصروفات وكادت تضطره الى الجهل والخمول لأن الأسرة لم تكن تجد ما تنفق على نفسها فضلا عن أن تجد ما تنفق عليه . ولكن الأم نزلت عن آخر ما بقى لها من الحلى أو استغنت عن بعض ما فى بيتها من المتاع ، ولكن الأب ضاعف الجهد ووصل الليل بالنهار فى العمل وأراق ماء وجهه عند فلان أو فلان يقترض منه مقدارا ضئيلا أو ضخما من المال ، واستطاعت الأسرة بفضل هذا الشقاء المتصل والعذاب الأليم أن تحل الأزمة وتخرج من الحرج ، وتؤدى المصروفات وتقوم له بما يحتاج إليه ليمضى فى درسه وادعا مطمئنا ناعم العين رضى البال . ولعل الأسرة لم تتعرض لهذا الحرج مرة واحدة ولا مرتين ، وإنما تعرضت له مرات ومرات حتى اتم الفتى درسه وبلغ ما أرادت له الأسرة وما أراده هو لنفسه .

ينسى هذا كله نسيانا يسيرا سهلا . ينساه بالقياس إلى نفسه فيحسب انه قد نشأ فى النعمة والرخاء ، وان ليس له بالضنك والضيق عهد . وينساه بالقياس إلى أسرته فيحسب انها لم تقدم إليه شيئا ، لم تشق ليسعد ، ولم تكد ليستريح بالنعيم . ثم هو ينساه بالقياس إلى الجيل الناشيء فلا يفكر فى ان بين هؤلاء الأطفال والصبية الذين يبسمون فتبتسم الحياة ، والذين يمرحون فيشيع من حولهم الرضى والغبطة ، مئات ومئات إنما يشتقون ابتساماتهم هذه الحلوة من عبوس الآباء والأمهات ، وانما يشتقون ضحكهم هذا المرح من حزن الآباء والأمهات كما كان هو يشتق ابتسامه ومرحه من عبوس أبويه وحزنهما فى العهد القديم .

ينسى هذا كله نسيانا ويجهله جهلا وتمحوه الحياة من قبله محوا قاسيا . فإذا هو يرى الناس كلهم ناعمين كما ينعم ، راضين كما يرضى ، قادرين على الانفاق كما هو يقدر على الانفاق . ليس عليهم

إلا ان يريدوا ليظفروا ، وليس عليهم إلا ان يضعوا ايديهم فى جيوبهم ليجدوا ما يحتاج إليه ابناؤهم من هذه النفقات التى تزداد كلما تقدمت الأيام . يرى نفسه موفورا فيحسب الناس كلهم موفورين ويجد نفسه سعيدا فيحسب الناس كلهم سعداء . وهو من هنا قاس اشد القسوة ، عنيف أشد العنف ، ينظر إلى الرحمة على انها خور فى الطبيعة كما كان يراها وزير عربى قديم وينظر إلى العدل على انه قوة فى يد الدولة ترفع بها من تشاء إلى حيث تشاء وتخفض بها من تشاء إلى حيث تشاء .

ثم ينظر إلى الحياة على انها جهاد لا ينال خيرها إلا بالكد والجد والعناء كما يتصور هو الكد والجد والعناء . وهو على ذلك صورة عابسة لدولة عابسة لاشر فيها ولا رضى ، ولا رفق فيها ولا ابتسام ، انما هى القسوة المنكرة والعنف المسلط على الرءوس والنفوس وعلى كل شىء من حوله حتى تستحيل الحياة جحيما أو شيئا يشبه الجحيم .

وأنت تستطيع ان تنظر فى حياتنا العامة على اختلاف فروعها فسترى كبارا يقسون على صغار لأنهم نسوا انفسهم أو قل نسوا ماضيهم ، ولم يذكروا انهم كانوا صغارا وانهم شقوا بهذه القسوة من كبار الجيل الماضى ، وأن الحق عليهم لأنفسهم وللناس ان يمحوا هذا الشقاء ويجنبوا الجيل الناشىء ما شقى به الجيل الماضى ، لا أن يثأروا لأنفسهم من الأبرياء ، فكثير من هؤلاء الكبار القساة انما يصطنعون القسوة متأثرين بشعور عميق خفى هوشعور الحاجة إلى التشفى والانتقام لكثرة ماذاقوا من الشدة والجهد حين كانوا صغارا .

وشر من هؤلاء قوم قست عليهم الحياة ورفقت بهم الدولة فأعانت أسرهم على تربيتهم وتعليمهم ومكنتهم من أن يتموا الدرس على أحسن وجه ، ويتقلبوا فى المناصب حتى تصير إليهم الأمور ، وإذا هم ينسون فى وقت واحد قسوة الحياة عليهم فيقسون على الناس ، ورفق الدولة بهم فلا يرفقون بأحد . أخذوا لانفسهم ما استطاعوا من لين الحياة . وهم يأخذون لانفسهم وسيأخذون لأنفسهم ما يستطيعون من لين الحياة ، ولكنهم لايعطون شيئا ، لا من ذات أيديهم ولا مما فى يد

الدولة لأنهم انما نعموا بالحياة وينعمون بها من حيث انهم ممتازون قد اشتقوا من عناصر ممتازة ، وهم ليسوا كغيرهم من الناس ولا ينبغي أن يشبه بهم الناس من قريب أو بعيد . وصدق الله العظيم في قوله الكريم ﴿ ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ .

كل هذه الخواطر الحزينة الشاحبة التى تملأ النفس بؤسا وحزنا ومرارة ، وإنما تخطر لى فى هذه الأيام حين تنتهى أجازة الصيف ويستقبل الناس العام الدراسي الجديد . من شأن هذه الأيام أن تكون أيام ابتهاج حلو واكتئاب هادىء لامرارة فيه . من شأنها ان تكون أيام ابتهاج لأن الأطفال والصبية والفتيان يستقبلون عامهم الدراسى الجديد الذى سيملأه النشاط الخصب فتنمو عقولهم وأخلاقهم واجسامهم . ويخطون إلى الرجولة خطوات مباركة ترقبها الأسر سعيدة مبتهجة .

ومن شأن هذه الأيام ان تكون أيام اكتئاب هادىء لامرارة فيه لأن الأطفال والصبية والفتيان سيفارقون الأسر الى حيث معاهدهم العلمية فتحزن الأسر شيئا ولكنه حزن باسم ان صح ان يبتسم الحزن ، ويحزن التلاميذ والطلاب شيئا ، ولكنه حزن قصير رقيق لايلبث ان تمحوه حياة الدرس ، ولكن هذه الأيام عندنا ليست أيام ابتهاج باسم واكتئاب هادىء ، وانما هى أيام الحزن الممض ـ والشقاء الملح والعذاب الأليم والصراع بين القدرة والعجز وبين الأمل واليأس وبين القوة والضعف ، وهى الأيام التى يجب ان يشقى فيها الآباء والأمهات ليجدوا لابنائهم ماينفقون وليؤدوا عنهم أجور التعليم . وأجور التعليم فى مصر ليست سهلة ولا يسيرة ، وإنما هى أجور ثقيلة عسيرة قد فرضت على أساس ان الأمة غنية أو ان التعليم حق للاغنياء دون غيرهم من الناس . وأين يجد الآباء مايحتاج إليه أبناؤهم من نفقة يعيشون بها فى عاصمة الدولة أو فى عواصم الأقاليم : وأين يجد اوباء ما يؤدون إلى وزارة المعارف أو الى الجامعة ليتعلم ابناؤهم . يجب إذن ان تنزل

الامهات عما بقي لهن من حلى وعن بعض مافى بيوتهن من متاع ، ويجب ان يريق الآباء بعض مافى وجوههم من ماء ليقترضوا من هنا وهناك ما يعينهم على تعليم أبنائهم .

ما أروع نظامنا الاجتماعي في تكدير الحياة ومن حقها أن تصفو ، وفي تنغيص العيش ومن حقه أن يكون حلوا رقيقا .

أن الطالب الأوربى ينفق أكثر أيام الطلب لا يكلف أهله شيئا من نفقات التعليم لأن الدولة تعلمه بلا أجر ، فإذا أتم تعليمه الثانوى وأراد الاتصال بالجامعة فهو فى بعض البلاد لايكلف اهله شيئا لأن الدولة تعلمه فى الجامعة بغير اجر ، وهو فى بعض البلاد الأخرى لا يكلف اهله شيئا يذكر لأن الجامعة تأخذ منه أجرا صوريا . فليعلم المصريون ان مصروفات التعليم فى كليات الآداب والعلوم فى فرنسا مثلا لا تزيد على سبعين قرشا مصريا فى العام أى انها لاتبلغ ما يدفعه الطلاب عندنا رسما للمكتبة والاتحاد . فأما مصروفات التعليم عندنا فيعرفها الآباء الذين يسعون ويعرفها الأمهات اللائى ينزلن عما لهن من حلى أو عن بعض مافى بيوتهن من متاع . ويعرفها رجال وزارة المعارف ورجال الجامعتين الذين تعلمت كثرتهم الكثيرة على حساب الدولة بالمجانية فى مصر وفى أوربا لأن الدولة كانت محتاجة الى المتعلمين ثم هم الآن يقاومون المجانية ماوجدوا الى مقاومتها سبيلا ويحتاجون فى التخلص منها ، يسلكون الى ذلك الطرق الملتوية اذا لم يستطيعوا ان يسلكوا اليها الطرق المستقيمة . يرفعون نفقات الطعام والكتاب ويحسبون انهم يحتفظون بالمجانية ويحكم أيها الناس ، ومن أين لغير الأغنياء باثمان الطعام والكتاب التى تطلبونها . لا تنظروا الى أنفسكم الآن ولكن انظروا الى أنفسكم حين كنتم صبية وأطفالا وفتيانا وأذكروا كيف كانت أسركم تشقى بدفع المصروفات ، وكيف كانت أسركم تسعد أن أتيحت لكم المجانية ، وأجتهدوا فى أن تجنبوا أسر هذا الجيل ماأحتملت أسركم من شقاء ، وأجتهدوا فى أن تتيحوا لاسر هذا الجيل ماأتيح لاسركم من السعادة حين ظفرتم بالمجانية . واحذروا أن

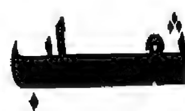
تكونوا من الذين قال الله فيهم : «ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » .

اللهم أشهد أنى ماذهبت قط الى الجامعة أو الى وزارة المعارف الا كانت هذه القصة ملء قلبى ، والا ذكرت أنى كنت سعيدا حين تعلمت على حساب الدولة ، فمن الحق على أن أتيح بعض هذه السعادة لأكبر عدد ممكن من شباب مصر ولو أستطعت لاتحتها لهم جميعا .

ومن يدرى فما لم نستطعه أمس قد نستطيعه غدا ولابد من أن يبلغ الكتاب أجله ولابد لمصر من أن تظفر بحقها من العدل فى يوم من الأيام .




نامت نواطير عن ثعالبها
فقد بشمنا وما تفنى العناقيد


ثعلب

لو رأيته قبل عشرين سنة ياسيدتى لما أنكرت منظره هذا الغريب ، حين رأيته يقبل متدحرجا كأنه البرمة الهائلة ، لم ترتفع فى الجو كثيرا ولكنها أتسعت عن يمين وشمال وامتدت من خلف وأمام وهى تسعى مع ذلك خفيفة لا تكاد الأرض تحس لها ثقلا لأنها أتخذت من لحم وعظم ، ولم تتخذ من حجر وصخر لو رأيته قبل عشرين سنة ياسيدتى لما أنكرت منظره هذا الغريب حين أقبل فحيا ثم تقدم يسعى حتى اذا بلغ مكانه جلس وكأنه الكثيب المنهال فكان الناظر اليه يسأل نفسه لاول وهلة أيرى أنسانا جالسا أم يرى كومة من الرمل ، قد أستخفى فيها شخص ضئيل لا يكاد يظهر منه الا تقاطيع وجهه ضئيلة غائرة خليقة ألا ترى . لولا هذا الصوت الذى يخرج منها ضئيلا نحيلا ، ولولا هذا الشرر الذى يتطاير من عينين صغيرتين لاتفتح عنهما الجفون الا فى بطء بطىء وثقل ثقيل كأنما تشد بخيط قد ركب فى قفاه ، وقام شخص من ورائه يجذبه متكلفا بين حين وحين فلم تكن هذه حاله قبل ٢٠ سنة وأنما كان فتى نحيفا ضعيفا ونحيلا ضئيلا رشيق الحركة كثير الاضطراب لا يعرف السعى الهادىء ولا المشى المطمئن ، وأنما كان يجرى على الأرض أو كان يجرى فوق الأرض ، كأنه شىء من هذه الحيوانات الصغيرة الخفيفة التى ملئت نشاطا وقوة وحياة والتى تريد ان تطير فى الجو لولا أن الله لم يرزقها جناحين .

ولم تكن هذه حاله اذا أنتقل من حيز الى حيز فحسب . وأنما كانت هذه حاله أيضا اذا أستقر فى مكان وأقبل على عمل من الأعمال . فقد كان متحركا دائما مضطربا دائما ، لا تكاد العين تلحظه الا رأت شيئا من شخصه يتحرك ، فوجهه ملتفت مرة الى يمين ومرة الى شمال . ورأسه

يرتفع حينا أو ينخفض حينا آخر ويداه تذهبان وتجيئان ، ورجلاه تداعبان الأرض مداعبة متصلة ، ولسانه لا يكاد يستقر فى فمه وانما هو متحرك دائما ببعض القول ، ولم يكن شخصه المعنوى أقل حركة واضطرابا من شخصه المادى ، فقد كان عقله مفكرا دائما ، وكان قلبه متوثبا دائما ، وكان انطلاق لسانه فى فمه مصورا دائما لهذا العقل الذى لا ينى فى التفكير ، ولهذا القلب الذى لا يفتر عن الشعور وكان على هذا كله ولهذا كله ، ومع هذا كله لا أدرى ، متوقد الذهن حاد الذكاء لا تعرض له مسألة من المسائل الا سبق اترابه الى تعمقها والنفوذ الى دقائقها واستخراج ما كان يمكن أن يستخرج منها ، وكان على ذلك او لذلك أو مع ذلك لا أدرى ، ماكرا شديد المكر عابثا غاليا . فى العبث ، حتى أحبه أترابه أشد الحب وخافوه أعظم الخوف ، أحبوه لذكائه وخفته وخافوه لتفوقه ولحيلته هذه الواسعة وعبثه هذا المتصل ودعابته هذه التى لا تنقضى وكانوا يُسمونه فيما بينهم الثعلب ، وربما بهرهم مكره وتعاظمتهم حيلته الواسعة فسموه الثعلبان . يرون فى هذه الصيغة خطأ او صوابا مبالغة فيما يريدون أن يخلعوا عليه من صفات الثعلب من الخفة والرشاقة ومن المكر والدهاء ولم يكن اترابه من التلاميذ وحدهم هم الذين يعجبون به ويعجبون منه وانما كان أساتذته كذلك يكبرون ذكاءه ويقدرون نشاطه ويرضون عن جده فى الدرس واجتهاده فى التحصيل وأسراعه الى الاجابة كلما ألقى سؤال وتفوقه فى الامتحان مهما يكن عسيرا وهم من أجل ذلك كانوا يرعونه ويتعهدونه بالسؤال عنه والتشجيع له والتتبع لتقدمه فى الدرس حتى كأنه كان ابنا لكل واحد منهم . وكان أعجاب رفاقه به ورعاية أساتذته له يشعرانه الرضى عن نفسه والثقة بها ، ويملآن قلبه أملا حلوا فى مستقبل باسم سعيد . وكان مع ذلك من أسرة متواضعة أشد التواضع ، ضيقة الحال أشد الضيق ، تجد الجهد كل الجهد . فى كسب القوت فضلا عما تحتاج اليه من مرافق الحياة . وكان الصبى يرى ذلك ويشقى بآثاره ولكنه لم يكن يحفل به كثيرا لانه كان راضيا عن نفسه وأثقالها ، مطمئنا الى أمله الباسم الحلو ومستقبله الرضى

السعيد . وقد أتم الدرس الابتدائي وَهم أهله أن يصرفوه عن التعليم ليوجهوه الى بعض العمل لعله يعينهم على بعض ما يلقونه من البؤس ويشقون به من الضيق ولكن الصبي بكي وأغرق في البكاء حتى رقت له أمه ورثى له أبوه . وتكلفت الاسرة ما تكلفت فجد الأب في الكسب وخرجت الأم عما بقي لها من حلية ، وتوسط بعض أساتذته في اعفائه من أجر التعليم فظفر بالمجانية ، ومرق من التعليم الثانوى كما يمرق السهم من الرمية . لم تعرض له عقبة الا ذللها ولا صعوبة الا قهرها ، لم يعرف الرسوب في الامتحان ، ولم يعرف التخلف عن الاقران ، وأنما كان السابق المتفوق دائما حتى اذا انقضت تلك الاعوام الثلاثة التى كان التلاميذ ينفقونها في التعليم الثانوى كان الفتى قد جمع شهادتين من شهادات الحكومة كما كان أبوه يقول لأمه اذا خلا اليها . وكما كانت أمه تقول لصاحباتها اذا تحدثت اليهن ..

وكان أبوه حريصا اشد الحرص على أن يضاعف الجد والكد ، وكانت أمه شديدة الحرص على ان تلتمس عملا كريما في أسرة كريمة ، ليستطيع الفتى أن يمضى في درسه حتى يظفر بالشهادة الثالثة . وأنما هى أعوام تنفق في هذه المدرسة أو تلك المدارس العليا ليصبح الفتى رجلا متفوقا ممتازا يستطيع أن يطمح الى مناصب المتفوقين الممتازين بين رجال الدولة الذين يحلون ويعقدون وينقضون ويبرمون . ولكن لله في خلقه حكمة بالغة لا يعرف كنهها ولاتدرك أسرارها ، فلم يكد يتقدم الصيف في ذلك العام حتى اعتل أبو الفتى أياما ، ثم تقطعت به أسباب الحياة وأسباب الأمل جميعا ففارق هذه الدار ولم ينعم بما كان يتمنى به من ظفر ابنه بالشهادة الثالثة وأشتغاله بخدمة الحكومة في منصب من هذه المناصب الممتازة التى لا يظفر بها الا المتفوقون الممتازون . ولم ير الفتى بداً من أن يتلمس العمل ليحيا ولتحيا أمه ، وفي الشهادة الثانوية مقنع للشاب الذى يريد عملا متوسطا بل في الشهادة الابتدائية . مقنع في ذلك الوقت للصبى الذى يريد عملا متواضعا ، وما هى الا ان يسعى الفتى ، ويعينه بعض أساتذته في هذا السعى ، واذا هو يظفر بمنصب متوسط في بعض الدواوين ، وقد ضمن لأمه

ولنفسه الغذاء والكساء كما يقال فى هذه الأيام ، ولكن الفتى حاول يحسن مقارعة الدهر لا يسد عليه مسلك من مسالك الحياة الا فتح له مسلك آخر من مسالكها كما يقول الشاعر القديم . والتعليم فى ذلك الوقت ميسر أكثر مما هو فى هذه الأيام لقلة المتعلمين وشدة الحاجة اليهم . فما يمنع صاحبنا أن يختلف الى الديوان وجه النهار والى مدرسة المعلمين آخره ، وقد فعل . وما هى الا أعوام حتى يبشر أمه انه قد نال الشهادة الثالثة . واذا عمله يتغير وأجره يرتفع واذا هو لايقنع لأمه ونفسه بالغذاء والكساء وأنما يضيف اليهما شيئا من طيبات الحياة ، وقد جعل رضى الفتى عن نفسه يشتد ، وجعلت ثقة الفتى بنفسه تزداد ، وجعل الأمل يهدى اليه ابتسامات فيها شىء من سعة ، وجعل المستقبل يدعوه باشارت فيها شىء من الحاح . وقد سأل الفتى نفسه ما الذى يمنعه من أن يختلف الى عمله وجه النهار والى مدرسة الحقوق آخره ، وما الذى يرغبه عن ذلك وليس له أرب فى هذه الحياة الفارغة التى يحياها أترابه من الشبان اذا تقدم النهار . وقد فعل ، وما هى الا أعوام حتى يقبل الفتى سعيدا محبورا فينبىء أمه بأنه قد ظفر بالشهادة الرابعة . والشيخة راضية لأن ابنها يرقى ويرقى ، ويكدس الشهادات لنفسه تكديسا ، والشيخة محزونة لان زوجها لا يشاركها فى هذا الرضى ولا يشاطرها هذا النعيم . والفتى مقبل على أيامه ينتهبها انتهابا وقد زاد رضاه عن نفسه وثقته بها ، وقد زاد ابتسام الأمل له سعة وأشتد دعاء المستقبل عليه الحاحا ، وهو يسأل نفسه لم لا يظفر بشهادة خامسة . وبشر أمه ذات يوم بأنه قد ظفر بهذه الشهادة الخامسة ولكنه أنبأها فى الوقت نفسه بنبأ مزق قلبها تمزيقا وأجرى دموعها على خديها غزارا . فقد عرفت له الدولة نبوغه وقدرت تفوقه ، ورأت أن الشهادة السادسة يجب أن تضاف الى الشهادات الخمس وان هذه الشهادة السادسة لا تطلب فى مصر ، وأنما هى بعيدة ، بعيدة ، يعبر لها البحر ، وتطلب من بلاد الانجليز . ولم يكن الفتى أقل من الدولة أعترافا بنبوغه ولا أقرارا بحقه فى الظفر بالشهادة السادسة ، والعلم يطلب ولو فى الصين ، والشهادات تطلب

ولو في بلاد الانجليز . ولا يتقدم الصيف حتى يكون الثعلب قد هيأ نفسه للرحلة البعيدة ، والغياب الطويل وقد غاب ما غاب ، ثم آب ومعه الشهادة السادسة والشهادة السابعة واذا هو رجل مرموق مرموق ، لا يذكر الا أكبره ذاكروه ، ولا يرى إلا أشير اليه بالبنان . هذا فلان أترى الى فلان ، أنه ذو الشهادات السبع وقد أكبرته الدولة ، وعرفت له حقه وحق شهاداته هذه الكثيرة التى يمكن أن تبسط على جدار من جدران مكتبه فتكسوه كله بهذا الورق الجميل يملأه الثناء الجميل . وقد رضى الفتى عن نفسه كل الرضى ، ووثق بها كل الثقة ، ولكنه زهد في الشهادات كل الزهد وأدركه شيء يشبه التخمة ، فاتجه نشاطه أتجاها آخر ملائما كل الملاءمة لطبيعة الحياة المصرية فى ذلك الوقت .

فقد كانت الثورة المصرية قد غيرت أشياء كثيرة من أمور الناس ، ومن أمور الحكم ، ومن أمور المستقبل الذى يطمع فيه الشباب . نشأ نظام الاحزاب ونشأ الصراع بين هذه الاحزاب .

ونشأت الفرص الكثيرة التى ينتهزها الاذكياء ليستفيدوا من صراع الاحزاب . ونظر الثعلب ذات يوم فاذا الحياة المصرية كلها تلقى فى نفسه أنه قد خلق للفوز وان الفوز قد خلق له ، لان الحياة المصرية لم تكن في وقت من الأوقات ملائمة لخفة الثعالب ورشاقتها وذكائها ونهمها منها فى هذه الأيام . وما ينبغى لمن يريد الفوز فى هذه العواصف العاصفة وفى هذه المصالح المشتبكة والخصومات المتصلة والمنافع المعقدة الا ان يكون فطنا ، وصاحبنا شديد الفطنة ، لبقا ، وصاحبنا عظيم الحظ من اللباقة ، خفيفا ، وصاحبنا أخف من النسيم ، ماكرا ، وصاحبنا امكر من المراة صامتا ، وصاحبنا أشد صمتا من الصخرة الصماء . وقد ينبغي أن يضيف المرء الى هذه الخصال ليبلغ ما يجب من الفوز ، خصلة أخرى تشتقّ من هذه الخصال جميعا ، فيتلطف حتى يشعر الاحزاب جميعا بأنها جميعا محتاجة اليه ، وحتى يشعر المرافق العامة جميعا بأنها كلها تستطيع أن تنتفع به ، وحتى يشعر الساسة جميعا بأنه رجل فن لا رجل سياسة . وقد أستطاع صاحبنا أن يبلغ من هذه الخصال كلها ما أراد .

فقد كان ثعلبا في المدرسة الابتدائية وكان ثعلبا في المدرسة الثانوية وكان ثعلبا في الدواوين التى أختلف اليها وجه النهار وفي المدارس التى اختلف اليها آخره . وكان ثعلبا في بلاد الانجليز وعاد منها اشد اغراقا في خصال الثعلب . ومكنته شهاداته السبع من أن يتثعلب في فروع مختلفة من فروع العلم والمعرفة . واذا الاحزاب كلها عنه راضية وبه معجبة واليه محتاجة ولكنه فقد من خصال الثعلب خصلة واحدة هي التى حملتك ياسيدتى على ان تضحكى منه حين رايته يقبل كأنه البرمة الضخمة وحين رأيته يجلس فينهال كما ينهال الكثيب .

ذلك ان الايام أحبته حبا شديدا ، فأخذت لا يمر به يوم منها الا خلع عليه قميصا من الشحم قد فصل على قده تفصيلا وجعلت هذه الثياب الشحمية تتراكم وتتراكب حتى مدته الى يمين والى شمال ، وزادته بسطة في الجسم من خلف ومن أمام ، وجعلته كما ترين جبلا يتحرك في خفة ويعمل في ذكاء .

قالت السيدة وكانت أديبة أريبة ، أرجو أن لا يكون ثعلبك هذا الغليظ من ثعالب المتنبى التى يقول فيها :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها

فقد بشمنا وما تفنى العناقيد





شياطين البيان

صدقني ياسيدى أو لاتصدقني لن يغني هذا عن الحق شيئا ، والحق الواقع ، وهو أن هذه القصة ليست مخترعة ولامصطنعة وليس للخيال فيها أثر قليل أو كثير ، وانما هى شيء وقع ، كما أن من الأشياء الواقعة أني قد خرجت من دارى حين ارتفع الضحى فسعيت إليك متثاقلا استمتع بهذا الجو الرائق ، وبهذه الشمس الفاترة ، وبهذا النسيم البارد الرقراق ، وادير فى نفسى ماوقع لى من الأمر ، واستعرض بعض الصور التى اريد ان اصطنعها لأقصه عليك . وأجيل فى نفسى أيضا ما سيكون بينك وبيني من أخذ ورد مستنكرا على حديثي وسأحاول اقناعك بأنه صحيح وسيشتد بينك وبيني خصام لا بد من أن يثور بيننا كلما حدثتك ببعض الأمر . لأنك رجل لا تؤمن إلا بما ترى وتحس . ولا تصدق من انباء الناس إلا قليلا .

ولست أخفى عليك انى أعذرك ولا ألومك فقصتي لا تخلو من غرابة ، وأية ذلك انى أنا نفسى انكرتها أشد الانكار وكنت واثقا كل الثقة بأنى رأيتها فيما يرى النائم ، وكنت اتحدث إلى نفسى بأنها حلم غريب ، طريف ، وكنت التمس العلة لهذا الحلم وكنت أجدها فى غير شقة ، وكنت أستمتع بحلمى واستمتع بما بذلت فى تعليله من جهد واستمتع كذلك بما سأتحمل فى تأويله من عناء . ولكن رأيتنى حين تقدم الليل وكاد ينهزم أمام النهار واقفا أمام دارى التمس المفتاح لاديره فيفتح لى الباب وانسل الى غرفتى فى هدوء وخفة حتى لايحس أهلى عودتى فى آخر الليل ، فلا أجد المفتاح ، وقد تعودت ألا أخرج مع الليل إلا أخذت معى هذا المفتاح أوفر بذلك على أهلى حريتهم وراحتهم ونومهم ، واجنبهم بذلك ان يسهروا منتظرين عودتى أو أن يهبوا من نومهم حين أعود ليفتحوا لى الباب ولكن المقادير أرادت أمس أن تجرى الأمور على غير ما تعودت أن تجرى عليه فانسيت المفتاح وما انسانيه إلا الشيطان ، وسترى أن هذا لم يكن غريبا ، فقد كانت المقادير قد

قدرت ان تكون ليلتى هذه من قسمة الشياطين . والشيء الذى ليس فيه شك هو انى التمست المفتاح حيث تعودت ان أحفظه فلم أجده فجعلت افتش في جيوبى كلها وما أكثرها فلم أجده وقد ضقت بذلك أشد الضيق ، حسبت أول الأمر أنى قد أضعته ثم لم ألبث ان ذكرت أنى خرجت مسرعا مع بعض الأصدقاء وأعجلنى الحديث فلم آت هذه الحركة اليسيرة التى انتزع بها المفتاح من مكانه واضعه فى الجيب الذى تعودت أن اضعه فيه .

فلما تبينت ذلك غشينى من الهم ماغشينى ووقفت واجما أول الأمر مترددا بعد ذلك . أأطرق الباب فأزعج من فى الدار ، أم أقوم مكانى حتى يسفر الصبح ويهب النوام ، أم أعود إدراجى فأطوف فى شوارع الحى أتلهى بهذا التطواف عن الانتظار ، وقد طال على هذا التردد فتحولت عن مكانى ولكنى لم أخرج من الحديقة وانما جعلت أطوف حول الدار وأردد فى نفسى قول الشاعر القديم :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم مادرت حيث أدور

ولم أكن أدور لأرى أم جعفر وانما كنت أدور مخافة ان أوقظ أم جعفر او ازعجها فيكون شر فى هذه الدار التى لم تعرف الشر إلا قليلا .

ولست أحدثك بما كان حين انجلى الصبح واشرقت الشمس وفتحت الأبواب واندفعت إلى غرفتى واسرعت إلى مضجعى والتمست الراحة فلم أظفر منها بشيء ثم نهضت مكدودا مجدودا وأقبلت اسعى إليك ولم أذق للنوم طعما فى هذه الليلة الطويلة القصيرة التى امتلأت من الأمر بأشده غرابة وأعظمه سخفا ولولا قصة المفتاح هذه ، لما شككت فى انى رأيت حلما من هذه الأحلام الكثيرة التى تعبث بنفوس الناس حين يجن عليهم الليل ، ولكنك ترى أنى مستيقظ منذ أشرق الصباح أمس . ولعلك تذكر وما أظنك نسيت اننا قد قضينا شطرا من الليل عندصديقنا فلان نسمر حول أحاديث الجن والشياطين وما تزعم العرب من الصلة التى تكون بينهم وبين الشعراء والخطباء والكتاب والذين يتعرضون لألوان البيان . وقد قال قائل منا أن العرب فى جاهليتهم واسلامهم لم يتحدثوا بما يكون بين الشياطين والخطباء والكتاب من صلات وانما

زعموا ان الشياطين قد وكلوا بالشعراء خاصة حتى إذا كان ابن شهيد في الأندلس زعم لنا في قصته المشهورة التوابع والزوابع ان للخطباء والكتاب شياطين كما أن للشعراء شياطين . وقد قص علينا في رسالته تلك زيارته لوادى الجن وما كان من حوار بينه وبين خطباء الجن وكتابهم أولئك الذين كانوا يلهمون خطباء الإنس وكتابهم ، وسمى لنا شيطان عبد الحميد الكاتب وشياطين غيره من اعلام البيان ، وسمى لنا شياطين جماعة من خصومه ومنافسيه في الفن ، وزعم لنا أنه خاصمهم فخصمهم وناظرهم فتفوق عليهم . وقد أخذت بحظى من هذا السمر كما أخذتم بحظوظكم منه فلما تفرقنا بقيت في نفسى هذه الأبيات التى ألقاها زهير بن نمير . ذلك الدليل الجنى لابن شهيد في زياراته المتصلة لتلك الأندية التى كان يجتمع فيها شياطين البيان ولعلك تذكر ان زهيرا ألقى أبياته هذه إلى صاحبه ابن شهيد وجعلها آية بينه وبينه . فكلما احتاج ابن شهيد إلى صاحبه أنشد هذه الأبيات فيسرع إليه زهير ويجيبه من الأمر إلى ما يريد .

وقد جعلت أردد هذه الأبيات في نفسى وانا امضى متباطئا إلى الدار ثم لست ادرى لماذا لم أكتف بإدارة هذه الأبيات في نفسى وإنما جعلت انشدها في صوت خافت لايكاد يسمعه غيرى .

وإلى زهير الحب ياعز انه إذا ذكرته الذاكرات أتاها
إذا جرت الأفواه يوما بذكرها يخيل لى انى اقبل فاها
فاغشى ديار الذاكرين وان نأت أجارع من دارى هوى لهواها

ولكنى لم اكد أفرغ من انشاد البيت الثالث حتى أحسست الرعدة تأخذنى أخذا عنيفا كدت أهوى له إلى الأرض لولا انى تماسكت ، ولولا ان ذراعا قوية عصمتنى من السقوط . فقد سمعت صوتا غريبا نحيلا يأخذنى من جميع اقطارى وهو يقول لبيك لبيك هانذا زهير بن نمير خليل شاعرك الأندلسى ابن شهيد في الزمان الأول والدهر القديم . ولست أخفى عليك انى قد انكرت من هذا الأمر مثل ما تنكر ولم ترتسم على وجهى هذه الابتسامة الساخرة التى ترتسم على وجهك الآن ، وإنما تقبض وجهى تقبضا شديدا وجعل العرق البارد يبل جبهتى ، وهم لسانى ان يدور في فمى صائحا مستغيثا ولكنى اسمع الصوت

النحيل يسعى إلى وكلما دنا منى زال عنه نحوله وجعل يمتلىء شيئا فشيئا وجرت فيه نغمات عذبة وهو يقول : لابأس عليك لا ترع واتل معى قول الله عز وجل « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فقد تلا هذه الآية من قبلك جماعة من أمثالك العرب حين روعوا بمثل ماتروع به الآن من لقاء أصدقائهم من الجن .

وقد سمعنى أتلو هذه الآية الكريمة مع صاحبى ثم رأيتنى أثوب إلى نفسى أو رأيت نفسى تثوب إلى وإذا قلبى أمن كله وإذا أنا هادىء هدوءا لا أكاد أعرفه من نفسى حين يفجئها مالا تنتظر وإذا أنا أسعى مع صاحبى كما تعودت أن أسعى معك فى غير وحشة ولا تكلف كانما كان بينى وبينه ود قديم قد بعد به العهد وطال عليه الزمان . ويجب ان أعترف لك بأنى أحسست فى ذلك الوقت ان لى شخصين مختلفين أحدهما يساير صاحبى فيسمع منه ويتحدث إليه والآخر عاكف على نفسه فى ناحية من نواحى الضمير يرقب ويسمع ويرى ويحاول التحليل والتعليل ويزعم لى أن ما أنا فيه إنما هو لون من ألوان الحلم لاعرض من أعراض اليقظة ولكنى شغلت عن هذا الشخص الذى انتبذ ناحية من نواحى الضمير بهذا الرفيق الذى جعل يتحدث إلى بالأعاجيب . فقد كان يقول لى : صدقنى ان هذا العلم الذى أخذه قدماؤكم عن اليونان وأخذه محدثوكم عن الأوربيين قد أفسد عليكم شيئا كثيرا وأشاع فى نفوسكم فنا من الكبرياء والغرور حرمكم متاعا لا حد له . فانتم تنكرون ما كان يعرفه قدماؤكم من معاشرة الجن ومخالفة شياطين الفن فإذا تحدث إليكم أبو العلاء بشىء من ذلك فى رسالة الغفران أو إذا تحدث إليكم ابن شهيد بشىء من ذلك فى رسالة التوابع والزوابع لم تصدقوه ولم تطمئنوا إليه وانما استمتعتم به فى شىء من السخرية والتكذيب على انه من آثار الخيال وفن من فنون الصنعة وما أبعد الفرق بين من يستمتع بالخيال المخترع ومن يستمتع بالحق الواقع الذى لاشك فيه . وانكم تنكرون المصادفة وتردون كل شىء إلى ما تسمونه الأصول والقوانين فردوا الأشياء إلى ما تريدون ولكن اعترف بأن المصادفة وحدها هى التى انطقتك بهذه الأبيات ، فإذا أنا استجيب لك مسرعا لاجدد معك ذلك العهد القديم الذى كان بينى وبين ابن شهيد شاعر الاندلس وخطيبها وكاتبها . وانت من غير شك حريص كما حرص ابن شهيد على ان تفر من حياة الناس لحظات طوال

أو قصارا دون ان تقطع الصلة بينك وبينهم وانما تراهم في شياطينهم او ترى شياطينهم وهم يزينون ما سيملاون به قلوبهم ويحركون به السنتهم ويجرون به اقلامهم من الوان القول .

وقد زرت ابن شهيد على ظهر جواد أصيل ، أما انت فقد ظهرت لك فجاة لم تدر انجمت لك من الأرض أم هبطت عليك من السماء وما أظنك تنكر من ذلك شيئا . فانتم لاتتخذون الخيل الان اداة للانتقال وانما تنتقلون فى سياراتكم وطياراتكم وقطاراتكم هذه التى تخيلون إلى انفسكم انكم قد أحدثتم بها المعجزت وابتكرتم بها الأعاجيب ، واظنك توافقنى على اننا معشر الجن أقدر منكم على اختراع الطرائف وابتكار الأعجايب واين تقع طرائفكم وأعاجيبكم مما كنا ناتى به من الطرائف والأعاجيب فى عهد سليمان عليه السلام . وإذا كنتم قد بلغتم ما بلغتم من المهارة والبراعة في عشرين قرنا فأحرى ان نبلغ نحن من المهارة والبراعة في هذا الأمد الطويل بالقياس اليكم ، القصير بالقياس الينا مالا يخطر لكم على بال .

وما أريد أن أشق عليك ولا أن اكلفك من الأمر مالا تحب وانما اريد أن ازور معك ناديا من أنديتنا هذه التي يجتمع فيها شياطين البيان وان اظهرك عليهم حين يخلو بعضهم إلى بعض وقد فارقوا قرناءهم من كتاب الإنس حين تقدم الليل وأوى كتاب الإنس إلى مضاجعهم واقبل شياطينهم إلى ناديهم يجدون حينا ويعبثون فى أكثر الأحيان . وهممت أن أرد على صاحبى رجع حديثه ولكنى أرانى فى قصر فخم ضخم لا أدرى انقلت انا إليه أم نقل هو إلى ولكنى أجد نفسى فيه دون أن اتكلف لذلك سعيا أو حركة واسمع صاحبى زهيرا يقول متضاحكا : قد يخيل إليك ان هذا النادى في ضاحية من ضواحى القاهرة كهذه الأندية التى تنبث حول مدينتكم هذه الصغيرة ولكن لاتجزع نفسك فإن بينك وبين القاهرة أمادا لاتقطعها السيارات ولا الطيارات ولا القطارات ، ولولا أنى رفيق بك وفى لك لاظهرتك على بعض ما بينك وبين القاهرة من أمد . ولكن أخشى ان اروعك ، فأعد معى تلاوة الآية الكريمة « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » وأنا أتلو معه الآية الكريمة وأجد الطمأنينة والأمن وأهم ان اتحدث إلى صاحبى ولكنه يبتدرنى بالحديث فيقول .

تعلم ان هذا النادى الذى أنت فيه مقصور على شياطين البيان الذين

يلوذون بأدبائكم انتم المصريين دون غيرهم من الادباء . فلن ترى في هذا القصر إلا قرينا لكاتب أو شاعر أو خطيب من هؤلاء الذين يملأون الجو في بلدكم فصاحة وبلاغة وبيانا . فأى شيطان من هؤلاء الذين يملأون الجو في بلدكم فصاحة وبلاغة وبيانا . فأى شيطان من هؤلاء الشياطين تحب أن ترى ولا يهم تحب أن تسمع ومع ايهم تحب أن تأخذ في الحديث ! قلت لا ادرى فانى اعرف كتابنا وشعراءنا وخطباءنا لكثرة ما أقرا واسمع من آثارهم ولو خيرتنى لاقترحت عليك أن تزور معى ناديا من اندية الشياطين الذين يوحون إلى جيل آخر من أجيال الأدباء . قال زهير سبحان الله مازلت بعد غارقا فيما يغرق أمثالك فيه من الوهم . انك لاتعرف كاتبا ولاشاعرا ولا خطيبا حق المعرفة حتى ترى شيطانه وتسمع منه ، لأن ما يلقى إليكم من آثار الأدباء ليس إلا صدى ضئيلا لهذا الصوت الخصب الذى ينفث فى القلوب ويطلق الألسنة ويجرى الأقلام وسترى بعد لحظات انك لاتعرف من أمر أدبائكم إلا أيسره واهونه شانا فامض معى .

ولم نكد نخطو خطوات حتى دفعنا الى بهو رحب بعيد الأرجاء تضطرب فيه ظلال غريبة ضئيلة وهى تتصايح وتتصاخب ويكاد بعضها يمزق بعضا لو أن الظلال يمكن ان تتمزق أو يدركها البلى . وقد انفرد من بين هذه الظلال شخص غريب مرتفع فى السماء ممتد في الفضاء كثير حركات الوجه كثير اضطراب الأعضاء لايستقر فى مكان ولا يستقر لسانه فى فمه ولا تكاد اعضاؤه تستقر في مواضعها من جسمه ، وانما هو حركة متصلة وصياح لاينقطع ، وقد حرص على ان لا يدنو من الظلال الأخرى التى تضطرب فى البهو فتملأه دويا كدوى النحل ، وانماهو ممتاز منها دائما لا تكاد تدنو منه إلا نأى عنها ولا تكاد تسعى إليه إلا ارتد فى أنفة وكبرياء ، وتجافى فى غلظة منكرة .

قلت لصاحبى : زهير ما هذه الظلال ؟ قال ضاحكا : هى جماعة من الشياطين لم تأخذ من الفن بحظ ، ولكنها خدعت عن أنفسها وملأها الغرور فقامت فى هذا البهو مضطربة صاخبة تريد ان تقتحم على شياطين الفن ناديهم فلا تبلغ من ذلك شيئا لأنها ترد عن نادى الفن ردا عنيفا : وليس اضطرابها هذا الذى ترى ، وليس عجيجها هذا الذى تسمع إلا مظهرا من مظاهر الغيظ وفنا من فنون الحنق وضربا من ضروب الإلحاح فى قرع الأبواب لعلها ان تفتح لها . قلت ، وما هذا

الشخص الذى يمتاز من هذه الظلال فيأبى أن يدنو منها أو أن يخلط نفسه بها ولا يؤذن له مع ذلك فى أن يتجاوز هذا البهو ، فهو يتحرك وكأنه ساكن ، ويسعى وكأنه واقف ، وينطق وكأنه صامت ، ويصخب وكأنه لايقول شيئا . قال : هذا مسيلمة الشياطين ، أراد أن يكون شيطانا من شياطين الفن فلم يستطع إلا أن يكون ثرثارا مكثارا مهزارا لاحظ لقلبه من غناء ولا حظ لعقله من علم ولا حظ لضميره من حكمة ، وانما اتيح له حظ من قدرة على الاضطراب والصخب لم يتح لغيره من هذه الظلال فهو ينأى عنها ولا يستطيع أن يقطع مابينه وبينها من الأسباب ، وليس من شك فى انه يمتاز منها بعض الامتياز . ولكن ليس من شك فى ان مايراه لنفسه فنا وما يحاول ان يلقيه إلى بعض من يتكثرون عندكم بالقول لايعدو ان يكون كما يروى من قول مسيلمة الانس : ياضفدع بنت ضفدع ، نقى ماتنقين اعلاك فى الماء واسفلك فى الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين .

وهممت ان أتعجل صاحبى زيارة شياطين البيان ولكن أرانى فى مكانى ذاك من الطريق الى دارى واسمع صاحبى زهيرا يقول لى فى صوته النحيل الذى جعل ينأى عنى شيئا فشيئا . حسبك من ليلتك هذه ما رأيت فإن راقتك صحبتى ، وشاقتك زيارة شياطين البيان فانشد ما كان ينشد شاعر الاندلس وكاتبها وخطيبها ابن شهيد :

والى زهير الحب ياعز انه إذا ذكرته الذاكرات أتاها
إذا جرت الأفواه يوما بذكرها يخيل لى أنى أقبل فاها
وأغشى ديار الذاكرين وان نأت أجارع من دارى هوى لهواها

ثم أطرق صاحبى لحظة ورفع إلى رأسه وهو يقول فى صوت هادىء منكسر : صدقنى ياسيدى أو لاتصدقنى فإن ذلك لايغنى عن الحق شيئا . والحق الواقع الذى لاشك فيه هو انى قد رأيت وسمعت كل ما أحدثك به الآن .

قلت متضاحكا فلا تنشد هذا الشعر مرة أخرى وأنا معك فانى لست فى حاجة إلى أن أرى شيطانك الاندلسى . قال وهو يضحك ضحكا فيه كثير من السخرية ، لابأس عليك فقد انسيت ان أنبئك بأنه زعم لى انه لن يستجيب لانشاد هذا الشعر إلا إذا كان هذا الانشاد بعد ان يتقدم الليل .



الطفـــــــل

لا تقولى انه رد إلى الطفولة بعد أن قطع مراحل الصبا والشباب والكهولة ولم يكد يخطو فى مرحلة الشيخوخة إلا خطى قصارا ، ولكن قولى ياسيدتى انه لم يخرج قط من طور الطفولة ولم يكد يعرف من الأطوار الأخرى التى يعرفها الناس والتى ذكرتها آنفا شيئا ما . فانك ان قلت ذلك كان قولك أدنى إلى الحق وكان رأيك أدنى إلى الصواب ، واضحكى ما شئت أن تضحكى فلست أكره لك الجذل والابتهاج ، ولكن الإنكار برفع الراس وهز الكتفين لا يغير من الحق شيئا ، كما أن الاغراق فى الضحك حتى تنهل الدموع من عينيك الجميلتين على خديك الاسيلين لن يحول الخطأ إلى صواب .

فانت مخطئة يا سيدتى حين تظنين انه رد إلى الطفولة قبل أن يبلغ الستين أو قبل أن يبلغ أرذل العمر ، وصاحبنا بعيد كل البعد عن أرذل العمر . فالذين يغلون فى تقدير سنه يقولون انه قد قارب الستين ، والذين يقتصدون فى ذلك يقولون انه لم يكد يتجاوز نصف القرن . أما هو فيخفي سنه ولعله لا يعرف من أمرها شيئا فقليل من الأطفال ، ومن أطفالنا المصريين خاصة ، من يعرفون أسنانهم .

وأنا أعلم أن الجيل الجديد قد أخذ يقلد أجيال الغرب فى الاحتفال بأعياد الميلاد . وأخذ الأطفال والصبية يعرفون أسنانهم فى هذه الأيام بحكم هذا التقليد . ولكن صاحبنا ليس من صبية الجيل الجديد ، وإنما هو من صبية جيل آخر قد مضى ولم يكن الناس يعرفون فيه إلا مولد النبى (صلى الله عليه وسلم) وموالد الأولياء والصالحين ، وميلاد الخديو السابق . فأما عامة الناس فكانوا يجهلون الأيام التى ولدوا فيها فضلا عن أن يذكروها ذكرا منظما وأن يحتفلوا بها فى كل عام .

وصاحبنا لم يولد فى القاهرة ولا فى الاسكندرية ولا فى مدينة من هذه المدن التى يشتد فيها الاتصال بالأوربيين ، ويسهل فيها تبادل السنن والعادات . بل هو لم يولد فى مدينة من مدن الأقاليم التى كان يكثر فيها اليونان الذين يشتغلون بالتجارة ويلم بها الموظفون من الانجليز أيام كان الموظفون من الانجليز يطوفون في المدن ليتعهدوا شئون الإدارة والرى والتعليم وإنما ولد صاحبنا في قرية صغيرة يسيرة من قرى الريف ، لا يكاد سكانها يتجاوزون بضع عشرة مئة ولا تكاد هى تمتاز عن أمثالها من قرى الريف المصرى فى أواخر القرن الماضى ، حين كان الحديث عن القاهرة والاسكندرية يملأ النفوس روعة وإعجابا كأنه الحديث عن الأساطير ، وحين كانت المدن في الأقاليم لا تبلغ إلا على ظهور الابل أو على ظهور الحمير ، وحين كان الناس في القرى لا يحفلون بتسجيل أبنائهم وبناتهم ، حين يولدون وإنما كانوا يتركون ذلك للداية تبلغه أو لا تبلغه إلى الحكومة تذكره مرة وتنساه مرة أخرى ، تهتم له مرة وتعرض عنه مرة أخرى . فليس غريبا أن يجهل صاحبنا سنه وليس غريبا أن يجهل الناس معه هذه السن .

وأنت تنكرين أن يجتمع على الرجل الواحد هذان الشيئان المتناقضان ، فيكون له جسم الشيخ وتكون له كل الخصائص الظاهرة التى يمتاز بها الشيوخ ، ثم يكون مع ذلك طفلا لم يمر بأطوار الصبا والشباب والكهولة . وهذا غريب من غير شك ، ولكن من الذى قال ان الغرائب لا توجد فى هذه الحياة ، ومن الذى يستطيع أن ينكر أن من الناس من تنمو أجسامهم نموا مطردا مألوفا وتختلف عليها الأطوار المعروفة التى يمر الناس بها فى حياتهم ولكن نفوسهم تبقى مع ذلك محتفظة بطورها الأول قد انتهت إلى حد من النمو لم تستطع أن تتجاوزه إلى غيره من الأطوار .

وليس من شك فى أن جسم صاحبنا قد نما وتطور كما ترين فعليه من مظاهر الشيخوخة هذا الشعر الذى وخطه شيب وهذه التجاعيد التى تظهر فى جبهته ، وهذه التجاعيد الأخرى التى تمتد حول أنفه من يمين ومن شمال ، وهاتان العينان اللتان لا تنفرج عنهما الجفون إلا فى شىء

من الجهد ، حتى يخيل إلى من يراه وقد أغمض جفنيه وتحدث أو تحرك انه إنسان يحيا من وراء ستار ، وهاتان الشفتان المنفرجتان اللتان لا تجتمعان إلا فى شيء من العناء ، سواء تكلم صاحبنا أو لبث صامتا ، وهذا التهدل والترهل فى وجهه الضخم وجسمه الذى يريد الشحم أن يكسوه فلا يستطيع ، وهذه الحركات البطيئة المتكسرة والمتعسرة التى تخيل إلى من يراها أنها تصدر عن مجموعة عصبية قد شملها الفتور وأخذ يشيع فيها الفناء وهذا الصوت المحطم الذى لا يكاد السامع يسمعه حتى يستحضر إناء من الزجاج وإناء من الفخار قد أصابه شق يسير فهو لا يرسل الصوت إذا مس إلا حدثنا بهذا الانحطام ، وهذا التنفس السريع الذى يتبع بعضه بعضا فى غير اناة ، كأنه تنفس المكدود المجهود والذى يسمعه القريب من مصدره والبعيد عنه كأنه يخرج من انف قد كثرت فيه الأعشاب فهو لا ينفذ من بينها إلا نفوذا عسيرا .

كل هذه مظاهر تدل على أن صاحبنا قد كان طفلا وصبيا وقد كان شابا وكهلا ، وهو الآن شيخ يخضع لما يخضع له الشيوخ من أعراض الضعف والفناء ولكن التحدث إليه والاستماع منه والأخذ معه فى فنون الحوار كل ذلك يصور لنا صبيا كسلا لم يتجاوز طور الصبا . فهذا هو الذى قد خيل إليك ياسيدتى انه رد إلى الطفولة قبل الأوان ، ومصدر هذا انك لم تعرفيه إلا منذ وقت قصير . فأما أنا فقد عرفته منذ أعوام طوال لا أعدها لك لانى لست فى حاجة إلى ان تعرفى عددها . ولكنى عرفته حين كنت شابا وحين كان جسمه فى طور الشباب . ثم عرفته حين تقدمت بنا السن وحين اختلفت علينا ظروف الحياة وتجاربها وحين عرضت لنا المشكلات والخطوب ، وأنا أراه الآن فلا انكر منه شيئا ، لأنى عرفته دائما فى هذه الحال التى ترينها ولانى ضحكت منه دائما مع اترابنا كما تضحكين انت منه الآن ، ولأنى قلت فيه دائما لاترابنا وسمعت فيه دائما من اترابنا هذه الجملة : مازال فلان طفلا ويظهر انه سيظهر طفلا مهما تقدمت به السن ومهما تختلف عليه أطوار الحياة .

وربما كان من الحق علينا أن نسجل الواقع فصاحبنا قد نشأ كما نشأ اترابه واختلف إلى الكتاب وأوجعت فيه عصا سيدنا احيانا واختلف إلى المدارس المدنية وبلى فيها من حياة التلاميذ والطلاب حلوها ومرها فاخفق حينا ونجح أحيانا حتى أتم الدرس العالى كما أتمه كثير من أترابه . ثم عبر البحر إلى أوروبا فدرس في بعض أقطارها اعواما ، ثم عاد إلى قريته فائزا مظفرا وسعيدا موفورا وكل هذا من غير شك لايدل على طفولة ولا يدل على أن نمو قواه العقلية قد كان محدودا . ولكن الغريب انه إلى جانب هذا النمو المطرد قد احتفظ بشيء من خصال الاطفال لم يفارقه في لحظة من لحظات حياته ، ولم يستطع اترابه الذين رافقوه فى المدارس المصرية وفى الجامعات الأوروبية وفى الحياة العملية بعد ذلك أن يجهلوه أو يتجاهلوه . فقد كان دائما سريع التأثر جدا بما يسر وسريع التاثر جدا بما يسوء . وكان دائما يتنقل من الرضى إلى السخط ومن السخط إلى الرضى فى غير تمهل ولا أناة ولا شيء يشبه الروية أو التفكير ، وإنما كان أيسر الأشياء يدفعه إلى الرضى فإذا هو فرح مرح وإذا ضحكه يملأ الجو من حوله ، وإذا حركاته العنيفة تضحك منه اصحابه وتلفت إليه غيرهم من الناس . وكان أيسر الأشياء يسخطه فإذا هو مغضب قد خرج عن طوره ، وإذا عيناه تقدحان شررا وإذا فمه ينفجر عن اشنع اللفظ وأبشعه ، وإذا جسمه يدفع إلى حركات مضطربة تدعو إلى الإشفاق عليه حينا وإلى الإشفاق منه حينا وإلى الضحك منه فى اكثر الأحيان .

وكان حكمه على الأشياء قاصرا أو واهيا منحلا ، لا يعتمد على تفكير صحيح ولا على منطق دقيق ولا على شعور صادق بحقائق الأشياء ، وانما كان له ومازال له منطق خاص لايكاد الناس يفهمونه عنه ولا يكاد الناس يقبلونه منه ، وإنما يسمعونه إذا تكلم فيدهشون ويأخذهم شيء من العجب . فإذا ردوا عليه منكرين اخرجه انكارهم عن طوره ودفعه إلى الغضب الثائر والسخط العنيف . فهم بين اثنتين اما أن يجاروه فيرضى وتغضب عقولهم ، وأما أن يخاصموه فيغضب وترضى عقولهم . وقد هموا بالثانية فوجدوا منه شططا وأرهقوه من

أمرهم عسرا وانتهت طفولته الجامحة إلى ان تنتصر على عقولهم الراجحة .

وأكبر الظن انه قد تعود هذه المجاراة والمداراة منذ طفولته الأولى فاستجاب أبواه إلى كل ما كان يريد وحققا له كل ما كان يبتغي ، فنشأ واثقا بأن العالم قد خلق له يدعو فيجاب . ويأمر فيطاع وبأن كلمة لا لم تخلق لتسمعها أذناه وانما خلقت لينطق بها لسانه وأكبر الظن أيضا ان هذا الحظ قد رافقه في دراساته الأولى . وآية ذلك أن سيدنا لم يكد يغضب عليه ويؤذيه بعصاه مرة حتى حوله أبواه من الكتاب إلى المدارس النظامية التي لايضرب فيها التلاميذ . وليس من شك في ان حب أبيه له ورعايته لهذا المزاج المدلل الرقيق وحرصه على ألا يتعرض لما يكره أو ان يرد عما يريد كل ذلك قد رافقه من قريب أو بعيد فلم تصدمه التجارب القاسية ولم تعلمه المصاعب ان ظروف الحياة يجب ان تتسلط على الناس أكثر مما يتسلط الناس عليها وان تؤثر في الناس أكثر مما يؤثر الناس فيها . فادرك الشباب على هذه الحال مؤمنا بنفسه كما يؤمن الطفل بنفسه مغامرا كما يغامر الطفل ، لا يفكر ولا يقدر ولا يرجو لشيء وقارا وإنما يريد فيقدم على ما يريد . والغريب انه كان يبلغ كل ما يريد . كان يبلغ كل مايريد لانه نشأ في أسرة موفورة لها حظ من ثراء ونصيب من الاتصال بالأغنياء وأصحاب الجاه ، فكان ثراء الأسرة وحبها له وعطفها عليه كل ذلك يذلل له المصاعب الخاصة ، وكان اتصال الأسرة بأصحاب الجاه والغنى يذلل له المصاعب الاجتماعية التي كان يمكن أن تعترض طريقه في الحياة وليس أدل على ذلك من أنه رأى الناس يكتبون فحاول أن يكتب ثم أظهر أسرته على ما كتب فأثنت عليه عن علم أو جهل . ثم أظهر من تتصل بهم أسرته على ما كتب فأثنوا عليه عن علم أو جهل . ثم رأى الناس ينشرون فهم أن ينشر كغيره من الناس ولكن الصحف امتنعت عليه فوجد من ذوي الغنى والجاه من يتوسط له عند هذه الصحيفة أو تلك وإذا هو يرى اسمه مطبوعا في مجلة شهرية أو اسبوعية ثم في صحيفة سيارة متواضعة ثم في صحيفة سيارة واسعة الانتشار ، وإذا

هو كاتب كغيره من الكتاب يقرأ نفسه ولا يقرأه الناس بعد ذلك فأما الذين يرونه ويعرفونه فيرضون ويثنون ويشجعون وأما الذين لا يرونه ولا يعرفونه فقد يرضون وقد يسخطون وقد يعرفون وقد ينكرون ولكن صاحبنا لا يعلم من ذلك شيئا ولا يعنيه أن يعلم من ذلك شيئا .

والمهم أنه لم يكد يتم الدرس حتى كان فى رأى نفسه ورأى ذوى معرفته كاتبا ممتازا . ولم يكد يعود من اوربا حتى هجم على التاليف كما هجم من قبل على التحرير ، وإذا له كتب تذاع وتباع وإذا أيسر الثناء على فصل يحرره أو كتاب ينشره يثير فى نفسه من الرضى ما يخرجه عن طوره ، وإذا أيسر النقد لفصل يحرره أو كتاب ينشره يثير فى نفسه من السخط ما يخرجه عن طوره . وإذا ثقته بنفسه على نحو ما يثق الأطفال بأنفسهم تفرضه على قراء الصحف والكتب والمجلات . ثم لا تكاد الأيام تتقدم حتى تضيف الحياة إلى هذه الثقة ثقة أخرى ، وإذا الأمر يستحيل فى نفسه إلى الغرور الذى لا حد له فى طول أو عرض أو عمق إن صح أن تكون للغرور أبعاد ، فقد اتصل صاحبنا بوجوه الناس وسراتهم ، واختلف إلى أنديتهم ومجالسهم وفرض نفسه عليهم بحكم المودة والقرابة والصلات المختلفة ، فأصبح واحدا منهم يشارك فى ما يشاركون فيه من شئون الحياة العامة والخاصة ويسرف على نفسه وعلى الناس فى هذه المشاركة ، والأيام تبسم له فى أكثر الأحيان ، ولا تعبس له إلا قليلا وهى لا تعبس له مع ذلك إلا بمقدار .

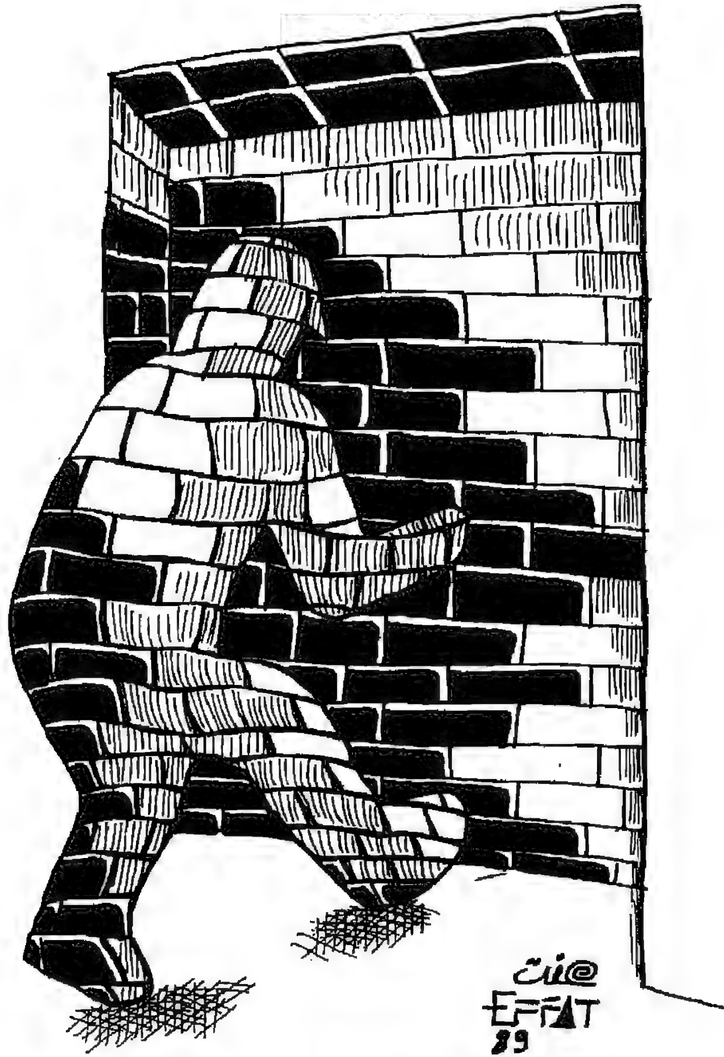
وفى أحداث التطور السياسى والاضطراب الخلقى والانتقال الاجتماعى وما كان من تغير القيم واختلاف المقاييس ما يتم القصة إن كانت فى حاجة إلى إتمام ويكمل الصورة إن كانت فى حاجة إلى إكمال . ولكن الشيء المحقق هو أن الحياة المستقرة الثابتة التى تجرى الأمور فيها على إذلالها تعلم الناس أن ذكاء القلب ، ونفاذ البصيرة ، ومضاء العزيمة ، والصبر على المكاره ، والاحتمال للخطوب وأخذ النفس بما يشق عليها ، وتجنبها الطرق الممهدة والأمور الميسرة هى الخصال

التى تبلغ بالناس ما يسمون إليه من نجح وفوز ولكن الحياة المتنقلة المتطورة التى لا تهدأ إلا لتثور ، ولا تسكن إلا لتضطرب تعلم الناس أن الطفولة المتصلة قد ترفع أصحابها إلى مكان الأفذاذ .

قالت السيدة وكانت أديبة أريبة : لقد أخطأ علماء البيان حين لم يرضوا عن هذا البيت الصادق الجميل من قول الشاعر القديم :

والعيش خيـر فى ظلا   ل النوك ممن عـاش كـدا





الظلال الهائمة

لم يشعر بطرق الباب حين طرق ولا بفتحه حين فتح . ولم يحس مكان الخادم حين أقبلت تحمل الشاى فوضعته على المائدة عن يمينه ، وألقت إليه نظرة سريعة فيها شيء من عجب وكادت ترفع كتفيها ساخرة ، لولا أن ملكت نفسها واستحضرت ما يجب عليها من توقير سيدها ، فانصرفت متباطئة متثاقلة ، حتى إذا بلغت الباب فتحته في شيء قليل من العنف وأغلقته من ورائها في شيء قليل من العنف أيضا تريد أن تنبه هذا الذى لا يتنبه لشيء لانه مغرق فى قراءته . على أنها لم تكد تغلق الباب من ورائها حتى أحست شيئا من راحة الضمير فقد أدت الواجب كاملا ، حملت إلى سيدها الشاى فى إبانه ، وطرقت الباب وخيل إليها أنها سمعت الإذن لها بالدخول ، فدخلت وخرجت وأتت من الحركات ما يوقظ النائم فكيف بتنبيه الغافل أو الذاهل أو المغرق فى القراءة ؟ لقد أدت الواجب كاملا فلا عليها أن يتنبه سيدها أو لا يتنبه ، ولا عليها أن يشرب الشاى وهو ساخن كما يجب أو أن يشربه وقد أدركه الفتور أو البرد أو ألا يشربه أصلا . والواقع أن سيدها لم يتنبه لمقدمها ولا لانصرافها ولا للشاى الذى كان يدعوه عن يمينه ، ولكنه لم يكن يسمع دعاء ولا يجد الظمأ كما تعود أن يجده كل يوم فى هذا الموعد الذى كان يقدم إليه فيه الشاى .

كان مغرقا فى القراءة ثم انتهى من الكتاب الذى كان يقرأ فيه إلى فصل لم يتجاوزه ، وإنما عاد إليه فقرأه مرة ومرة ، ثم كف عن القراءة ولكنه وصل بصره فى هذا الفصل الذى أعاد قراءته وظل مطرقا ممعنا فى الاطراق والتفكير ، ثم رفع رأسه وعلى ثغره ابتسامة يسيرة ، ثم نظر أمامه لا يريد أن يرى شيئا وإنما هو واجم باسم ينظر ولا يرى

ويفكر ولا يحقق شيئا ، ثم تتسع ابتسامته قليلا ثم ينفرج فمه عن ضحك يريد أن يعلو ، ويملأ الغرفة لولا انه يمسكه ويوشك ان يرده إلى جوفه ردا لانه قد ثاب نفسه فجاة واشفق ان يسمع ضحكه من وراء الباب فتظن به الظنون ، هنالك التفت فراى ابريق الشاى كئيبا مستخذيا لكثرة مادعا إلى نفسه والح فى الدعاء فلم يستجب له أحد لان دعاءه لم يبلغ احدا . فاقبل صاحبنا على الأبريق يمسه بيده مسا خفيفا ثم يمسحه بيده مسحا متصلا كانما يترضاه ويعزيه . وقد أحس برد هذا الابريق وعرف ان الشاى الذى يحتويه لم يعد ملائما لذوقه وألفه ، وهم ان يدق الجرس ويدعو الخادم لتاتيه بشاى جديد ولكنه استحيا واشفق ان تسخر منه الخادم . إذا رات شايها لم يمس وان تعيد القصة على امراته وبنيه فلا يفرغ منهم ولا من عبثهم إذا كان العشاء . فلم يربدا من ان يشرب الشاى كما هو ، وقد ملأ قدحه وجعل يدير فيه الملعقة يريد أن يذيب هذا السكر الذى يستعصى ولا يريد أن يذوب فى هذا السائل البارد . ولكن صاحبنا نسى الشاى مرة أخرى وجعلت يده تدير هذه الملعقة فى هذا القدح إدارة آلية غير شاعرة بنفسها لانه عاد إلى التفكير في هذا الفصل الذى كان يردد قراءته آنفا . ثم عاد إلى التفكير فى هذا الفصل ثم لم يطل الوقوف عنده هذه المرة ، وإنما ذهب به الخيال مذاهب مختلفة لم تلبث أن ردته إلى الابتسام ثم إلى الضحك المكظوم .

وكان هذا الفصل من كتاب الفصول والغايات لأبى العلاء ويجب أن أروى لك بعضه لتعذر صاحبنا فى إطالة الوقوف عنده والتفكير فيه ثم فى اتخاذه معراجا يرقى فيه إلى سماء بعيدة جدا من سماوات الخيال :

« يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ، وتكون بنانه مجارى دمعه ، ويجد الطعام بأذنه ، ويشم الروائح بمنكبه ، ويمشى إلى الغرض على هامته .. »

فقد وقفه هذا الكلام الغريب ، أضحكته الصور الظاهرة منه أول الأمر ، ثم جعل يستعرض طائفة من أصدقائه وذوى معرفته فيتخيل بعضهم ماشيا على راسه قد اتخذ الطربوش أو العمامة أو القلنسوة

غطاء لرجليه ، ويتخيل بعضهم باكيا بإحدى أصابعه أو أكلا بإحدى أذنيه . فتدفعه هذه الصور مطبقة على ما يعرف من أصحابه إلى الإغراق في الضحك ثم تثوب إلى نفسه شيئا فشيئا ، ويقدم عقله على الجد قليلا . وإذا هو ينظر إلى الأمر نظرة فلسفية حازمة فيرى أن صاحب هذه الخواطر لم يخطىء . فقد خلق هذا العالم على هذا النحو الذى نعرفه وكان من الجائز أن يخلق على نحو آخر ، بل من الجائز أن يحوله خالقه من هذا النحو الذى خلقه عليه إلى نحو آخر يمشى فيه الناس على رءوسهم وينظرون بأقدامهم ويذوقون بآذانهم .. إلى آخر ما زعم أبو العلاء .

ومادامت قدرة الله شاملة فلن يعجزها شيء . ثم يتلو في نفسه الآية الكريمة : « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن . قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » قدرة الله إذن شاملة لا يعجزها شيء مهما يكن ، وقد جعل هذا الخاطر يتردد في نفسه ملحا عليها إلحاحا شديدا ، وجعل خياله يتصور ألوانا من الأشياء لم يرها الناس ولم يتعودوا أن يروها أو يتحدثوا عنها ويقول لنفسه إن الله قادر على أن يخلق هذه الأشياء كما أتخيلها وأشياء أخرى لا أتخيلها أنا . وإنما يتخيلها غيرى من الناس أو لا تخطر للناس على بال . ثم تعرض لخياله صور يقف عندها وقوفا طويلا . فالله قادر على أن يصور ما يمتاز الناس به من الفضائل في شكل فتيات حسان يوسعن أصحابها ثناء وتشجيعا . والله قادر على أن يصور ما يتصف به الناس من الرذائل في شكل فتيات قباح يشبعن من يتصف بهن ذما ولوما وتقريعا .

ثم يأخذ في استقصاء ما يعرف من أخلاق نفسه فيرى وفاءه للأصدقاء وبره بهم وإيثاره لهم بالمعروف وقد تصور أمامه فتاة حسناء تهدى إليه ابتسامات حلوة من بعد ، ثم تدنو منه قليلا قليلا ثم تلحظه لحظا فيه كثير من الحب والعطف والحنان . ثم تدنو منه قليلا قليلا ثم ترسل إليه صوتا عذبا كأنه صوت الملائكة لو أنه سمع للملائكة غناء

أو حديثا . وهذا الصوت يحمل إليه دعابة حلوة وتحية كريمة . وهو يجد اللذة كل اللذة فيما يرى والمتعة كل المتعة فيما يسمع ولكن هذا الوجه الرائع الجميل الذى يدنو منه شيئا فشيئا لا يلبث أن تغشاه سحابة رقيقة من الكآبة والحزن ، ثم تزداد هذه السحابة كثافة وثقلا وبشاعة كلما دنا منه ذلك الوجه الذى كان يراه رائعا جميلا . وقد خطر له فى أثناء ذلك أنه لم يكن وفيا كل الوفاء ولا برا كل البر وأنه فى ذات يوم قد خان العهد وجحد المودة ، وأنكر الجميل وعق الصديق ، وأنه قد أقدم طائعا أو كارها على بعض الغدر الذى يحاول أن ينساه فلا يستطيع ولا يكاد يفرغ من هذا التفكير حتى يحس شخصا منكرا بشعا قد وقف عن يمينه وجعلت أصابعه الغلاظ السمجة تعبث فى شعره ذاهبة جائية وجعل صوته خافتا أشد الخفوت ولكنه منكر أشنع النكر يقول له :

يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدميه ويمشى على رأسه ، ويقدر ربنا أن يحيى الموتى ، ويقدر ربنا أن يصور مافى نفوس الناس من الفضائل فتيات حسانا ويقدر ربنا أن يرد هؤلاء الفتيات الحسان قبيحات بشعات منكرات اللفظ واللحظ والصورة . ويقدر ربنا أن يخرج هؤلاء الفتيات من القبح إلى الحسن ومن البشاعة إلى الجمال فالنفس الإنسانية واحدة تحسن مرة وتسىء مرات ، والله قادر على أن يصور لها عملها فتاة يسبغ عليها الجمال والحسن مرة ويصب عليها القبح والبشاعة مرة أخرى . انظر . ويفتح عينيه فيرى فتاته تلك قد عادت إلى جمالها وروعتها ، وقد أخذت ابتساماتها تمتلىء سحرا ولحظاتها تمتلىء فتونا وصوتها يمتلىء موسيقى تخلب القلوب وتعبث بالألباب وهى تتلو « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » وقد تنبه صاحبنا مذعورا أشد الذعر وظن أن قد أخذته غفوة فنام ، وعبثت به خواطر أبى العلاء فصور له فى غفوته هذا الحلم الغريب وقد أخذ يسترد نفسه النافرة ويدعو خواطره الشاردة يستعين على ذلك بهذا القدح من الشاى عن يمينه فهو يرفعه إلى فمه فيفرغه فى لحظة ثم يرده إلى مكانه فى شىء من عنف مقصود يريد أن يحدث

صوتا يعيد إليه صوابه كله ويطرد من هذه الغرفة ما رددت فيها الأحلام من تلك الأصوات ، ولكنه ينظر فإذا أشخاص قائمة في أقصى الغرفة منها الحسن الرائع ومنها القبيح البشع وكلها تنطق بصوت يوشك أن يكون صوتا واحدا ، يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدميه ويمشي على رأسه . ويقدر ربنا أن يحيي الموتى ويميت الأحياء ويقدر ربنا أن يصور الفضائل والرذائل فتيات حسانا أو قباحا ، ويقدر ربنا أن يملأ الأرض بهؤلاء الفتيات تصور كل واحدة منهن ما يحدث الناس من أعمال فيها الخير والشر وفيها العرف والنكر ، ويقدر ربنا أن يخفي هذه الظلال عن أعين الناس ما شغلتهم الحياة ، وأن يظهر هذه الظلال لأعين الناس إذا خلوا إلى أنفسهم وحاسبوها حسابا عسيرا أو يسيرا .

وقد امتلأ قلب صاحبنا رعبا . وهم أن ينهض بنفسه من هذه الغرفة المشؤومة الموبوءة وليجد عند أهله وبنيه أنسب من هذه الوحشة ، ولكنه لا يجد قوة على النهوض كأنما اتصل بكرسيه اتصالا وكأن كرسيه قد سمر في الأرض وإذا صيحة هائلة تملأ الغرفة ويفتح لها الباب وتدخل منه امرأته مروعة تسأله : ما خطبك ؟ فيجيب في صوت غريب يمتزج فيه الخوف بالهدوء والضحك بالخجل : ما أدري لعلي غفوت فأخذني ما يشبه الكابوس ولكن صوتا خافتا جدا يسمعه هو ولا تسمعه امرأته وهذا الصوت يهمس في أذنه ، كلا لم تغف ولم تروعك الأحلام والكابوس وإنما رأيت الظلال الهائمة ولن تأمن منذ اليوم أن تراها .

قلت لمحدثي وكان طبيبا بالأعصاب : أتريد أن تقول إن من الخير أن يحسن الناس اختيار ما يقرأون من الكتب ، فإن القراءة التي يمضي فيها أصحابها على غير اختيار سابق لما يلائم أعصابهم وأمزجتهم قد تنهي بهم إلى شر عظيم . قال محدثي هيهات وكيف السبيل إلى تنظيم القراءة للرجال العاقلين وكيف السبيل إلى أن يعرف الناس ما يلائمهم ومالا يلائمهم مما يقرأون ؟ هيهات لم أرد إلى هذا ولا يمكن أن أريد إنما أحببت أن أبين لك أن قلب الإنسان غريب يقسو أحيانا فإذا هو كالحجارة أو أشد قسوة ويلين أحيانا فإذا هو كهذه الأرض الرخوة

التى امتلأت ماء لا تكاد تمس حتى تنفجر منها العيون والينابيع وقلب صاحبنا هذا قد قسا فكان كالحجارة أو أشد قسوة ، فأتى ما أتى من الشرولان فكان كهذه الأرض التى امتلأت ماء ، مسها أبو العلاء بخاطره هذا الغريب فتفجر منها هذا الينبوع الذى نستطيع أن نسميه ينبوع الندم .

وأطرق محدثى الطبيب ساعة ثم رفع رأسه إلى ضاحكا وهو يقول : نعم ان قلب الإنسان لغريب أتذكر ماقال فيه جوته انه كبير جدا لا يملاه شىء وهش جدا يحطمه أيسر شىء .





غلطـــــــــة

كان محمد بن عبد الملك الزيات قاسى القلب غليظ الكبد جافى الطبع بليد المزاج . وكان على هذا كله أديبا مرهف الحس نافذ البصيرة رقيق الشعور ، صافى الذوق مترف العقل ممتازا فيما يكتب من نثر وفيما يقرض من شعر . وكانت السياسة ، والسياسة وحدها ، هى التى أتاحت لهذين الشخصين المتناقضين أن يعيشا فى جسم واحد وأن يتسميا باسم واحد ، وأن يصدر عنهما مع ذلك من الأعمال والأقوال ماليس إلى التوفيق بينها سبيل .

فقد كان محمد بن عبد الملك الزيات أقسى الناس فى القول والعمل ما تولى أمور الحكم ، وكان أرق الناس قولا وعملا مافرغ لحياته الخاصة . وقد ذهبت حياته الخاصة مع ما يذهب من حياة الناس . وبقيت من حياته العامة آثار تصور نفسه البشعة وقلبه القاسى وطبعه الجافى وعنفه الذى لم يكد تاريخ المسلمين يعرف له نظيرا .

وكان محمد بن عبد الملك الزيات يقول فيما كان يقول : ان الرحمة خور فى الطبيعة ، وكان محمد بن عبد الملك الزيات يقترف فيما كان يقترف من الآثام . أذاق الناس الوانا من العذاب لم يعرفها قبله عرب ولا عجم . والله عز وجل يعجل الانتقام حينا ويملى للقساة الجفاة الظالمين أحيانا ، وقد عجل الانتقام من محمد بن عبد الملك الزيات فذاق العذاب الذى أذاقه الناس أيام حكمه ، وكان معذبه يقول له « ذق إنك أنت العزيز الكريم » .

ولست أدرى لم ذكرت محمد بن عبد الملك الزيات وقصته هذه البشعة ، وسيرته هذه المنكرة وحكمه هذا البغيض . وقد تغيرت حياة الناس فرقت طباعهم بعد جفوة ، ولانت قلوبهم بعد قسوة ، ولم يبق

بينهم فى مصر على الأقل من يقول ان الرحمة خور فى الطبيعة ، ومن يعذب الناس فى تنور قد فرشت أرضه بالمسامير المدببة ، وقد امتدت هذه المسامير المدببة فى سقفه وجنباته فما يقيم فيه المعذب البائس إلا على هذه المسامير تأخذ لحمه من كل ناحية إن اقام ساكنا أو تحرك فى تنوره هذا المنكر البشع .

ليس فى مصر شيء من هذا لاننا قد تحضرنا فرقت طباعنا وصفت أذواقنا ولانت قلوبنا وتهذبت نفوسنا . واذن فما الذى يذكرنى بمحمد ابن عبد الملك الزيات فى القرن الرابع عشر للهجرة ، وفى مدينة القاهرة التى هى عاصمة مصر التى قال عنها إسماعيل العظيم رحمه الله « إنها جزء من أوربا » .

ذكرنى بمحمد بن عبد الملك الزيات فى قسوته الغليظة الجافية ما إلا لحظة من أن الترف لم يغير من غرائزنا شيئا ، وإنما علمها القسوة المترفة وعلمها الافتنان فى العذاب وعلمها الترف فى ألوان الانتقام ، فنحن لا نعذب الأجسام وإنما نعذب النفوس ، ونحن لا نلقى الناس فى تنور أشرعت فيه المسامير من جميع أقطاره وإنما نلقى الناس فى ألوان من العذاب ليست أقل بشاعة ولا نكرا من هذا التنور الذى ابتكره ذلك الوزير العباسى فى القرن الثالث للهجرة وفى مدينة السلام .

وليس فى هذا شيء من الغرابة فإن تقدم الحضارة الإنسانية لم يرق العقل وحده ، ولا الذوق وحده ، وإنما رقى الغرائز أيضا وعلمها فنونا من القسوة ما كانت لتخطر لمحمد بن عبد الملك الزيات واضرابه على بال . وللفرنسيين تعبير يصور هذا الترف فى القسوة وهذا الافتنان فى الانتقام ، فهم يقولون فيمن يصب على الناس عذابا هادئا ولكنه متصل منته إلى أبشع الغايات ، انه ينضج من يعذبه على نار هادئة . ونحن والحمد لله بارعون كل البراعة فى الإنضاج على النار الهادئة ، نجد فى هذا لذة آثمة خبيثة توشك أن تكون مسخا لما كان الإنسان يظن أنه يمتاز به من ذكاء القلب ونفاذ البصيرة وصفاء الذوق ودقة الطبع . وأى شيء أبغض وابشع وأشد فى النفوس نكرا من أن تصب على خصمك هذا العذاب الهين اللين الرقيق ، الذى لا يكاد يرى ولا تكاد آثاره

تحس ، ولكنه يتصل ويمضى مع الدقائق والساعات ومع الأيام والليالى ومع الأسابيع والأشهر والأعوام ، حتى يبلغ ببطئه هذا الفظيع أضعاف ما كان يبلغه محمد بن عبد الملك الزيات بعذابه المنكر السريع .

وابشع من هذا كله واشد من هذا كله نكرا ان يصطبغ هذا العذاب الهادىء المتصل البطىء بصبغة من العدل أو مما اتفقنا على أن نسميه عدلا ، فلا يجوز إنكاره ولا يباح نقده ولا يصح أن يلام فيه الذين يقترفونه ، لانهم ينفذون القانون وينفذونه فى دقة حازمة صارمة ، وهم يحمدون لذلك ولا يلامون فيه ، وكيف يلام الناس حين ينفذون القانون ؟ وكيف يعاب الناس حين يتشرون هذا العدل الذى يصنعونه صناعة ويتكلفونه تكلفا ويناقضون به طبائع الأشياء ويناقضون به هذه القوانين العليا التى لم يضعها برلمان ولم يشرعها ملك ولا حاكم ، وإنما ركبت فى نفوس الناس تركيبا وجعلت جزءا من فطرتهم .

وما أشد حاجة الناس إلى ان يفرغوا لأنفسهم بين حين وحين ويتدبروا أعمالهم وأقوالهم بين وقت ووقت ، ويضعوا انفسهم حيث يضعون ضحاياهم ، ويسألون انفسهم أيصبرون لما يصبون على الناس من هذا العذاب الهادىء البطىء المتصل لو أن غيرهم صبه عليهم فى هدوء وبطء واتصال ، هذا الموظف فى وزارة المعارف الذى أراد أن يلحق طفلا من أطفاله بروضة من رياض الوزارة لينشا مع اخويه فلم تكتف الوزارة بان ردت طفله الجديد ، ولكنها ألحقت به فى البيت اخويه اللذين أقاما فى الروضة عامين او أكثر من عامين ، ثم حولتهما بعد ذلك إلى روضة خيالية قد انشئت فى عقول الموظفين فى وزارة المعارف ولم تر الشمس إلا بعد وقت غير قصير ، وقد ذهب هذا الموظف باطفاله إلى روضتهم الجديدة البعيدة فلم يجد شيئا ، ثم ذهب بهم فلم يجد شيئا ، ثم فتش واستقصى . وسأل القاصى والدانى ، وسال مكتب البريد فلم يجد شيئا ، ثم ذهب بعد ذلك فوجد دارا مهدمة ليس فيها مرفق ولا اداة من ادوات التعليم والتربية واللعب ، ليس فيها طعام يؤكل ولا ماء يشرب ، فعاد باطفاله إلى داره

كئيبا محزونا كاسف البال ، وكان قد شكا للوزير فلم يسمع الوزير له او لم يعلم الوزير بانه قد شكا إليه .

وقد جعل كل ما أصبح رأى أطفاله يبكون ، لان سيارة الوزارة التى كانت تحملهم إلى الروضة فى الأعوام الماضية تمر بهم مصبحة ممسية فلا تغدو بهم على الروضة ولا تروح بهم منها ، وإنما تمر بهم ساخرة منهم مزدرية لهم تحمل اترابهم فرحين مرحين يبتسمون للصبح المشرق الذى يسوقهم إلى المدرسة ، ويبتسمون للنهار المبصر الذى يردهم إلى دورهم ، وهؤلاء الأطفال البائسون يرون سيارتهم ويرون اترابهم دون ان يستطيعوا ركوب السيارة او مشاركة الاتراب فى ابتسامات الغدو او ابتسامات الرواح .

رأى هذا الموظف أطفاله على هذه الحال ، وذاق هذا الموظف مع اطفاله مرارة الحرمان وقسوة هذا العذاب ، وقد أراد سوء حظه وسوء حظهم أن يكون هؤلاء الأطفال اليتامى قد فقدوا امهم كما كان هو مترملا قد فقد زوجته ، وكان هذا الموظف يجد فى تربية اطفاله وتنشئتهم من العزاء عن فقد زوجته ، وكان معتقدا انه يرضى نفس امراته كلما نجح فى العناية باطفاله وفى تربيتهم لانه يؤدى لهم ما كانت خليقة ان تؤديه لو أتيح لها البقاء . فلما أوذى الأطفال فى تعليمهم وفى لعبهم ، ولما أوذى الأب فى تربية اطفاله وتنشئتهم ولما راى الأب دموع اطفاله مع الصبح ودموع أطفاله مع المساء وضجر أطفاله اثناء النهار لم يستطع على ذلك صبرا ، ولم يملك نفسه ، فشكا فى الصحف لعل الوزير يقرا شكاته فيمسه بشىء من الإنصاف ويمس اطفاله بشىء من العطف ويرد إليهم وإليه حقهم من العدل الذى كلف أن يشيعه بين الناس .

شكا ولكن الوزير لم ينصفه ولم يعطف على اطفاله ولم يرد إليهم ولا إليه قليلا من العدل ولا كثيرا ، لم يفكر فى الأب الأرمل ولا فى الأم الميتة ولا فى الأطفال الصغار اليتامى ، وإنما فكر فى الموظف الذى نقد الوزارة فى الصحف ورأى أن هذا النقد اثم فى ذات الحكومة وأن القانون يعاقب عليه .

باللعقول الواسعة . باللقلوب الرحيمة . باللطباع المهذبة . باللأذواق المصفاة . أما الأبوة البائسة وأما الطفولة التعسة فلا يحفل بها الوزراء ولا يلتفتون إليها ولا يقفون عندها ، لانهم ان فعلوا ذلك كانوا رحماء ، والرحمة خور فى الطبيعة كما كان يقول محمد ابن عبد الملك الزيات .

واما أن يلفت موظف وزارة المعارف إلى واجبها ويدلها على خطئها ويدعوها إلى إصلاح هذا الخطأ فهذا هو الاثم كل الاثم ، والإجرام كل الإجرام ، وهو التقصير فى ذات القانون وهو الخروج على النظام ، والسكوت على هذا ضعف أى ضعف ، والعقاب على هذا كله عدل أى عدل وحزم أى حزم . ألا بعدا للعدالة والحزم إن كانت غايتهما إهدار أبوة الأباء وبنوة الأبناء ، وتضييع ما للناس على الدولة من حق وإلغاء ما على الدولة للناس من واجبات .

أساء الموظف إذن إلى الدولة فى رأى الوزير فيجب أن يعاقب فاما إساءة الوزير إلى الأمة فى أشخاص هؤلاء الأطفال الصغار فيجب أن تذهب هدرا ، كذلك يريد العدل المصنوع . وقد حقق مع هذا الموظف فألقيت عليه أسئلة صريحة أجاب عليها إجابة صريحة وكان من الممكن أن يقرأ الوزير وأن يقدر أبوة هذا الأب البائس ، وبنوة هؤلاء الأبناء البائسين ، ولكن الوزير لم يقدر أبوة ولا بنوة ، وإنما قدر أن الحكومة قد أسيء إليها فيجب أن تنتقم من المسيء ، فأصدر أمره بنقل هذا الموظف إلى الصعيد الأعلى ، هناك حيث لا توجد رياض للأطفال ، وحيث لا يجد هؤلاء الأطفال الذين نشئوا فى القاهرة ما يلائم حياتهم الهانئة المتواضعة ، ولو أن لهؤلاء الأطفال أما ترعاهم لسافر أبوهم إلى الصعيد الأعلى جادا كادا ملتمسا له ولهم أسباب الرزق ، ولكن الأطفال يتامى لا يعولهم إلا أبوهم ولا يستطيع أن يعولهم فى الصعيد الأعلى ، فطلب الموظف إلى الوزير أن يعفيه من هذا النقل ليرعى أطفاله ويقوم منهم مقام الأب والأم جميعا .

ولكن الوزير لم يفكر فى الأبوة البائسة ولا فى الطفولة اليائسة ولا فى الأمومة التى ذهبت بها الأقدار وإنما فكر فى أن وزارة المعارف

قد أسيء إليها فيجب أن تنتقم من المسيء .

ولذلك أبى الوزير أن يقبل عذر هذا الأب البائس ، وحدد له موعدا يصل فيه إلى الصعيد الأعلى ، ونظر الموظف فإذا هو مخير بين أمرين أحلامهما مر وأيسرهما نكر ، فاما ان يرضى الوزير فيجحد حق ابنائه عليه ويجحد حق امرأته عليه أيضا ، حق امراته الميتة التى لا يمكن استرضاؤها ولا الاعتذار إليها ، واما ان ينهض بحق ابنائه وحق زوجه وحق أبوته فيغضب الوزير وفى غضب الوزير ضياع المنصب وانقطاع المرتب وتعرض الأطفال الصغار للجوع والحرمان .

وقد اختار الموظف فأرضى حق الأبوة والبنوة والأمومة واحتار الوزير أيضا بين الرحمة التى أودعها الله فى النفوس والعدل الذى صنعه الناس صناعة ، فترك الرحمة التى نشرها الله و آثر العدل الذى صنعه الناس ، وأحال الموظف إلى مجلس التاديب ووقفه عن العمل وقطع مرتبه .

وقد قلت لك اننا بلغنا من الترف فى الانتقام والافتنان فى حب العذاب الهادئ المتصل البطيء مالم يبلغه محمد بن عبد الملك الزيات . ففى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر ارسلت الوزارة إلى البنك كتابا تامره فيه الا يصرف لهذا الموظف مرتبه عن شهر أكتوبر وعلم الموظف ذلك من البنك نفسه لا من الوزارة ، وذهب إلى الوزارة فى اليوم الأخير من شهر أكتوبر يسأل عن هذا القرار فقيل له انه صدر ولكنه لم يطبع بعد . ومعنى ذلك ان البنك قد عرف القرار قبل ان يعرفه الموظف . ومعنى ذلك أن هذا الموظف ذهب فى آخر الشهر ليتقاضى مرتبه فلم يجد شيئا ولم يكن قد عرف من أمر القرار شيئا . ومعنى ذلك أن هذا الموظف عاد إلى بيته فى ذلك اليوم صفر اليد مما تعود أن يوسع به عليهم ، وأن يرزقهم منه رزقهم حين يصبحون وحين يمسون . ومعنى ذلك ان هذا الموظف لم يعاقب فى نفسه وحدها ، وإنما عوقب فى أطفاله الصغار . ومعنى ذلك ان هذا الموظف لم يعاقب وحده ، وإنما عوقب معه أطفال أبرياء أكبرهم فى السادسة وأصغرهم فى الثالثة . لان هذا الموظف نقد الوزارة فى الصحف . ومعنى ذلك أن

الوزارة أكرم على نفسها من أبوة الآباء وبنوة الأبناء ، وحق اليتامى لافي أن يتعلموا بل في أن يعيشوا .

هذا هو العدل الذى صنعه الناس والذى تقوم عليه قوة الحكومات . فأما الرحمة التى خلقها الله ، فأما العدل الذى أراد الله أن ينشر فى الأرض ، فأمران لا يثبتان لما ينبغى لوزارة المعارف من كرامة فى نفوس الموظفين . والغريب أن وزير المعارف أب وأن ما أجراه على هذا الموظف يمكن أن يجريه عليه طاغية من الطغاة فى يوم من الأيام ، والغريب أن لوزير المعارف أعوانا كلهم أب ، وكلهم يعرف حق الأبوة وحق البنوة وما ينبغى للأطفال الصغار اليتامى من رعاية وعناية وحماية من الآفات .

كل هذا غريب حقا لان التسلط يعمى البصائر والأبصار عن حقوق الأبوة والبنوة ، ولان التسلط يملأ النفوس غرورا وفنونا وتكبرا وتجبرا ، ويرتفع بها عن الرحمة التى هى خور فى الطبيعة كما كان يقول محمد بن عبد الملك الزيات .

أى العذابين أشد نكرا ! عذاب التنور الذى أشرعت فيه المسامير المدببة والذى يألم فيه المعذب أياما ثم يموت ، أم هذا العذاب الرقيق الرفيق الرشيق الهادىء المتصل البطىء الذى لا يرى ولا تحس آثاره ولكنه يفنى النفوس شيئا فشيئا ، ويعلم الأطفال أن الحرمان قد يؤذى ، وأن الظلم قد يملأ النفوس بأسا ، وأن الجوع قد يكون كريه المذاق .

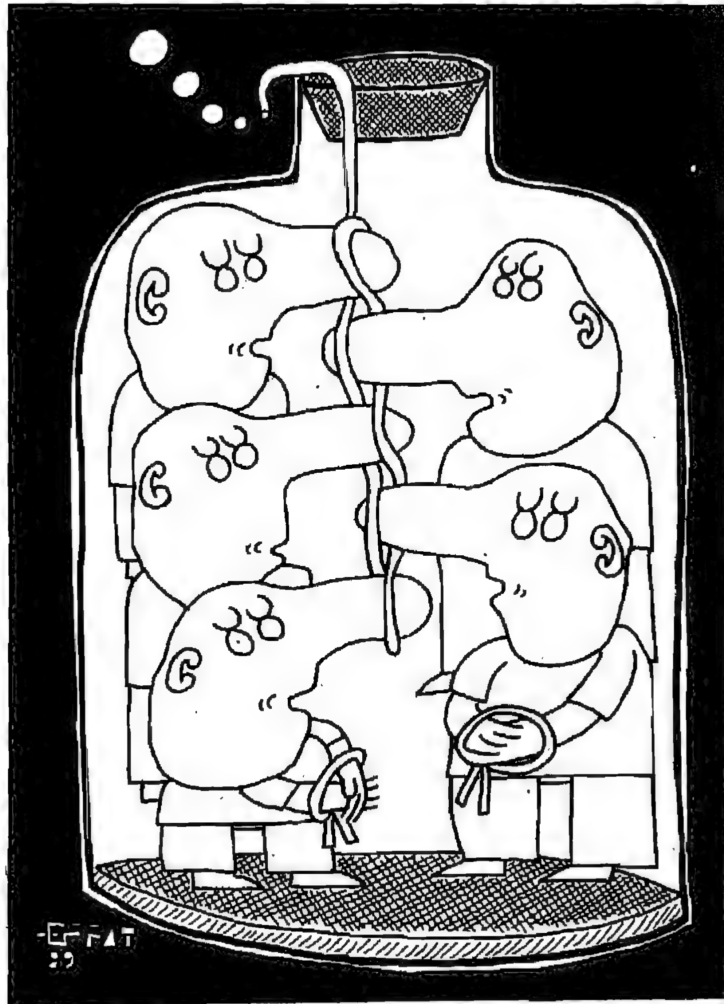
أى العذابين أشد نكرا ، هذا العذاب الذى كان يصبه محمد ابن عبد الملك الزيات على الأجسام حتى تهلك ، أم هذا العذاب الذى يصب فى هذه الأيام على النفوس فيعرضها لفقدان الكرامة وللشعور بالذلة وللاستخذاء أمام المتسلطين إلى هذا انتهت بنا الحضارة المترفة ويقال بعد ذلك ان أخص ما يمتاز به العصر الحديث انه علم الناس أن لهم ضمائر تحب الخير وتكره الشر ، وتندم حين تصيب الناس بما تكره أن يصيبها الناس به .

ربما كان هذا حقا ، ولكن هذه الضمائر التى استكشفها الإنسان فى العصر الحديث تمتاز أيضا بالمرونة ، فهى قادرة على أن تتشكل

بما يقدم إليها من الأشكال ، وهى قادرة على أن تستدير مع الشمس ، وهى قادرة على أن تستقبل الريح من حيث تهب ، وهى قادرة على أن تلغى ابوة الآباء وبنوة الأبناء وامومة الأمهات وأن تكن فى غيابات القبور . وهى قادرة على أن تعرض الأطفال الصغار اليتامى للجهل والفقر والمرض والجوع ، لا لشىء إلا أن وزارة المعارف قد نقدت فى الصحف وهى أكرم من أن تنقد فى الصحف وان كان الناقدون آباء لا يعرفون كيف يعلمون ابناءهم .

معذرة أيها القارىء الكريم انى لأشعر أن فى هذا الحديث مرارة قد تؤذى نفسك وتؤلم قلبك ولكنك توافقنى فيما أظن على أن فى حياتنا أشياء ان رضيها ضمير الوزراء وأعوان الوزراء فلا ينبغى أن ترضاها ضمائر الشعوب .





الشجــاع

لم تخطىء وصفه يا سيدتي ، فهو شجاع بأدق معاني هذه الكلمة وأكملها وأشملها ، ولكن بشرط أن تفهمي من الشجاع معنى غير هذا المعنى المألوف الذي ابتذله الناس في أدبهم القديم والحديث . فليس في صاحبنا من شجاعة الناس شيء ولعله أن يكون أبعدهم عنها وأبرأهم منها ، وأدناهم إلى الخوف الذي يخلع القلوب ، والهلع الذي يفسد المروءة ، والجزع الذي تطير له النفوس شعاعا . وآية ذلك أنه حريص أشد الحرص على أن يرضي كل إنسان مشفق أشد الإشفاق من أن يغضب أي إنسان ، لا يحرص على أن يرضي الجماعات أيضا . ولعل حرصه على إرضاء الجماعات أن يكون أشد من حرصه على إرضاء الأفراد ، ولا سيما حين يكون لهذه الجماعات من القوة حظ قليل أو كثير وحين يكون بينها وبين السلطان سبب طويل أو قصير . والأمر عنده في إرضاء الأفراد والجماعات يدور على ما يرجو من منفعة وما يخشى من مضرة فهو حيثما رجا المنفعة عظيمة كانت أو يسيرة ، حلو الشمائل سمح الأخلاق سهل المراس ، لين العريكة ، مهذب الطبع ، مثقف الذوق ، عذب الحديث ، وهو على نقائض هذه الخصال كلها إذا لم يرج نفعا ولم يخش ضررا ، فيه ماشاء الله من شراسة الطبع وجفوة الخلق وغلظة الذوق وانحراف المزاج ، وسوء العشرة ، وصعوبة المراس وخشونة الحديث .

وأظنك توافقنيني ياسيدتي على ان شيئا من هذه الخصال لا يلائم أخلاق الرجل الشجاع . فالشجاع لا يقيم امره على الرياء ولا يجرى حياته على المصانعة ، ولا يلين حين تجب الشدة ولا يشتد حين يحسن اللين .

والشجاع بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة لا يسرف في إيثار نفسه بالخير ولا يضحى في سبيل هذا الإيثار بما يجعل الرجل الكريم رجلا كريما . ومع ذلك فصاحبنا شجاع بشرط أن تفهمى الشجاع كما اراد أن يفهمه الشاعر القديم حين قال :

وأطرقت أطراق الشجاع ولو يرى مساغا لنابيه الشجاع لصمما

فالشجاع هنا اسم لا وصف ، وهو لا يدل على الرجل الذى يصبر نفسه على المكروه ويجشمها الهول فى سبيل ما يتم مروءته ويكمل رجولته ، ويرفع منزلته ويجعله ممتازا بين الممتازين الذين يستحقون الامتياز ، ولا يغضبونه غضبا وإنما يدل على الحية التى تستخفى فى جحرها لا تكاد تظهر منه إلا راسها الدقيق وتظل على حالها هذه مستخفية مطرقة ، حتى إذا مكنتها الفرصة ووجدت مساغا لنابيها لم تضيعها وإنما عضت فصممت كما يقول هذا الشاعر وبلغت من عضتها وتصميمها ما تريد .

وهذه الحية او هذا الشجاع لا يستخفى فى الجحر دائما ولكنه يستخفى في رمال الصحراء ويستخفى بين الصخور الغلاظ ويندس فى الفراش الوثيرة ، وهو سارب بالليل وسارب بالنهار يحسبه من يراه هادئا كل الهدوء مطمئنا كل الاطمئنان ولا يكاد يقدر أن على أحد منه باسا لولا أن الإنسان قد عرف اخلاقه منذ اقدم العصور ، ولكن هدوء الهادىء لا يفر الناس عنه واطمئنان المطمئن لا ينسى الناس ما بلوا من اخلاقه وهذا هو الفرق الوحيد بين الشجاع الذى نتحدث عنه والشجاع الذى ذكره الشاعر القديم . معروف الأذى منتظر الشر قد تواصى الناس ببغضه وخوفه واجتنابه منذ عرفوه . وأما الشجاع الذى نتحدث عنه فانه رجل مثلنا يشاركنا فى كثير من صفات الناس ويضطرب معنا في كثير مما نضطرب فيه من شئون الحياة ، وهو من

اجل ذلك يخدعنا عن نفسه وامله أن يخدع نفسه عن نفسه أيضا ولست ادرى ايهما شر ، شجاع الحيات الذى لا يراه الناس إلا فزعوا منه واتقوا شره او شجاع الناس الذى نراه فنطمئن إليه ونصل أسبابنا بأسبابه ونقدم إليه المعروف وننتظر أن يقدم إلينا المعروف أو الا يصيبنا منه مكروه على اقل تقدير .

وقد زعم بعض الناس للجاحظ ان من الحيات ما له رأسان ، وزعم بعض الاعراب للجاحظ أنه رأى هذا الصنف من أصناف الشجعان ، فلما سأله الجاحظ بأى الرأسين يسعى وبأيهما يطعم قال انه يفطر باحد رأسيه ويتغذى بأحدهما الآخر ويسعى بهما جميعا .. قال الجاحظ وهذا من اكذب الكذب . ومن الجائز ان يكون الاعرابى قد كذب على الجاحظ في وصفه لشجاع الحيات ولكن من المحقق أن لشجاعنا الأنسى راسين وانه يفطر بأحدهما ويتغذى بأحدهما الآخر . أو قولى ان شئت ياسيدتى ان له لونين من ألوان الغذاء وقد خصص لكل لون منهما رأسا من رأسيه هذين فله غذاء مادى يأتلف من هذا المال الذى يجمعه شيئا فشيئا ويحصله قليلا قليلا ، ويضم بعضه إلى بعض فى اناة ورفق وانتهاز للفرص ، وله غذاء معنوى يمازجه شيء من المادة هو هذه الدرجات التى سعى لها منذ اتصلت اسبابه بأسباب العمل فى الدواوين ، فهو يلتمسها فى اناة ورفق وانتهاز للفرص ، كما يلتمس غذاءه المادى ذاك . وما أكثر الذين يتاح لهم أن يعملوا فى دواوين الحكومة أو غيرها من مكاتب الأعمال العامة ، ويعنون مع ذلك بجمع المال وتدبير الثروة والاستكثار مما يتيح لهم الغنى ويملأ أيديهم من حطام الدنيا ، ولكن المهم الذى يمتاز به صاحبنا ويشبه به الشجاع شبها قويا ، والشجاع ذا الرأسين ، هو طريقته فى جمع المال وتدبير الثروة ، وطريقته فى التماس المناصب وابتغاء الوسائل إلى الرقى فى درجاتها المختلفة . فهو لا يسعى فى ذلك كما يسعى الناس ، وإنما يتأتى له كما يتأتى الشجاع للفريسة التى يعمل فيها نابيه وينفث فيها سمه الناقع .

* * *

وقد زعم بعض الصقالبة للجاحظ أيضا أن من الحيات ما يلتف على البقرة الحلوب التفافا حتى يبلغ ضرعها فيرتضعه فى شره وما يزال يشرب ما فيه من لبن حتى يمتلىء وينتفخ ويتراخى . وإذا هو يترك البقرة ويستلقى سكران من كثرة ما شرب ولكنه قد اضطر فريسته إلى الهلاك .

وكذلك يفعل صاحبنا فى جمعه للمال حين يجمعه وفى التماسه للمنصب حين يلتمسه ، يرى الفريسة أمامه فينظر إليها ويصل بها نفسه وقلبه وعقله ، ثم يثب إليها حين تمكنه الفرصة ثم يلتف عليها وما يزال يمتصها امتصاصا ويرتضعها ارتضاعا حتى يأتى على آخر ما عندها . أورثته أسرته ثروة متواضعة ليست بذات غناء ولكنه لم يقنع بها . ومتى قنع الناس بما يتاح لهم من أعراض الدنيا ، لم يقنع بها وإنما طمع فى تنميتها ، وفى تنميتها على حساب جيرانه وخلانه وذوى مودته ، والذين كانت بينهم وبين أسرته صلات المحبة والألفة وحسن الجوار ، فاطرق أطراق الشجاع ، وجعل ينتهز الفرصة حين تسنح ويتربص الدائرة حين تدور ويرقب النائبة حين تنوب . فلا تزال عينه ناظرة إلى ما حوله من أرض جيرانه ولا تزال نفسه متصلة بها حتى تعرض حاجة جار من جيرانه إلى بعض المعونة إلى ما يحتاج إليه صاحب الأرض من هذا القرض الذى يؤدى به الحق حين يلزم ، ويدفع به الخطب حين يلم . هنالك يرفع الشجاع رأسه من أطراقه ، وهنالك يكون الأطماع ويكون الامتناع ، وهنالك يكون الدنو ويكون النأى ، وهنالك يكون القرب ويكون الهجر والحاجة ملحة على جاره ولعله أن يشارك فى جعل هذه الحاجة ملحة مشتدة فى الإلحاح ، وما يزال بجاره يبدى له المال ويخفيه عنه حتى إذا وجد مساغا لنابيه أدى المال وأخذ مكانه رهنا مقبوضا .

وكذلك أنفق حياة طويلة يداعب جيرانه هذه المداعبة المرة ويلاعبهم هذه الملاعبة البغيضة ، حتى ضم أرضهم إلى أرضه ومالهم إلى ماله وحتى ردهم فقراء بعد غنى وأشقياء بعد سعادة ومحتاجين إلى الرفق والعطف بعد أن كانوا يبذلون الرفق والعطف ، وإذا هو

سيدهم ، وقد كان واحدا منهم . وإذا هم يدينون له بالطاعة ويلجاون إليه عند الملمات ، ويعملون في ارض كانت لهم فاصبحت له واصبحوا هم لها وله في وقت واحد .

وإذا هو يستكبر ويستعلي ويطغى ويبغى ويشق على من كانوا له أكفاء فاصبحوا له اجراء . وكذلك عمل أحد هذين الراسين في الازدراد والالتهام لكل ما كان حوله من المال والثراء ينتهز الفرصة كلما سنحت ويخلقها إذا لم تسنح ويبذل الحيلة كل الحيلة في خلقها وابتكارها ان امتنعت عليه . وهو على هذا كله هادىء وادع مطمئن يشيع في قلوب الذين يرونه أمنا وانسا ودعة ورفقا ، حتى إذا عضهم بنابيه عرفوا كيف تكون مساورة الحيات . ولو كان لهم حظ من ثقافة أو ادب لأنشد كل واحد منهم قول النابغة :

فبت كاني ساورتني ضئيلة   من الرقش في انيابها السم ناقع

وأما راسه الثاني فيعمل في القاهرة ، يستقر في مكتب من المكاتب وفي ديوان من الدواوين كما يستقر الشجاع في جحره أو يطرق كما يطرق الشجاع في كثيب من رمال الصحراء ، يسعى هادئا كما يسعى النسيم ، وينساب رفيقا كما ينساب ماء الينبوع ، وهو على ذلك حذر ماكر يرقب الفرصة ويسعى بالكيد ، ويفرق بين الصديق ويغرى بالزميل حتى إذا أمكنت الفرصة ووجد مساغا لنابيه صمم وأحسن التصميم ووثب إلى فريسته فانطوى عليها كما ينطوى شجاع الجاحظ على البقرة الحلوب ، وما يزال يمتص فريسته حتى ياتى على آخر ما عنده ، وإذا هو قد ارتقى من منصب إلى منصب ، ووثب من درجة إلى درجة وقفز من مرتبة إلى مرتبة ، وإذا الذين كانوا له رفاقا وزملاء قد أصبحوا له مرؤوسين يجدون في طاعته ويصدرون عن أمره ، وقد ملأ الجو من حوله مكرا وكيدا وخبثا ودهاء ونفث السم في البيئة كلها كما ينفث الشجاع سمه في الفريسة حين يظفر بها .

وأخص ما يمتاز به الشجاع انه على ما يظهر من لينه ورخاوته وتهالكه ومرونة جسمه شديد الأيد لا يعيا بشيء ، واقوى ما فيه انيابه ومعدته . فانيابه لا يعييها شيء ومعدته لا يعجزها قضم . وهو من

أجل ذلك لا يتعب ولا يبلغه الجهد مهما يحاول من أمر ومهما يتكلف من مشقة . وهو من أجل ذلك لا يرضى مهما حقق من أمل ولا يقنع مهما يبلغ من أرب ، وهو لا يمضغ دائما ولكنه يمضغ حينا ويزدرد أحيانا ويهضم على كل حال . وأمر صاحبنا كأمر الشجاع في هذا كله ، فرأسه العامل فى القرية لا يطرق إلا ليثب ، ورأسه العامل فى القاهرة لا يطمئن إلا ليثور ، ومعدته مضطربة دائما بهذا الهضم المتصل الذى لا يذر شيئا أتى عليه إلا جعله كالرميم .

وللشجاع صفير يؤذى وفحيح يخيف ، ولو قد سمعت صاحبنا ياسيدتى حين يعبث به الطمع ويحركه الإغراء وتدعوه الفريسة إلى القضم والهضم ، لسمعت صياحا منكرا وجئيرا بشعا ليس أقل نكرا ولا بشاعة مما يبعثه الشجاع حين يتهيأ للوثوب من صفير وفحيح .

وليس لشجاع الحيات منزل يختاره ويؤسسه ويؤثر المقام فيه وإنما هو ساع دائما يأوى إلى حيث يحب أن يأوى ويغير حيث يحب أن يغير ، وهو من أجل ذلك شائع الأذى متصل الشر منتشر العدوان ، وصاحبنا يشارك الشجاع في هذه الخصلة كما يشاركه فى غيرها من الخصال ، فهو لا يؤثر مالا بعينه ولا يؤثر عملا بعينه ولا يؤثر صديقا بعينه ولا يؤثر عدوا بعينه ، وإنما المال كله صالح للجمع وتوفير الثراء ، والعمل كله صالح لنيل المناصب وارتقاء الدرجات والناس كلهم له صديق والناس كلهم له عدو ، وهو قادر على أن يندس فى كل مكان ويحصل فى كل مجلس ، وينساب فى كل ناد ويقول فى كل شيء ويكتب فى كل موضوع وينفث السم حيث يتاح له أن ينفث السم . أى حيث يتاح له أن يتنفس . فالهواء كله قد سخر له يودعه سمه فينقله حيث يسعى النسيم وحيث تجرى الريح عاصفة أو رخاء .

ولشجاع الحيات المصرية شهرة ذائعة وأحاديث شائعة وذكر قديم وصوت بعيد . وعهد مصر كما تعرفين بالحيات قديم ذكرت مع فرعون فى الكتب المنزلة وظهرت مع فرعون فى النقوش والآثار ، ولكن عهد مصر بالشجعان الانسية قريب فيما يظهر ، وهو على قربة خصب بعيد الأثر ، فقد كثرت شجعان الناس فى مصر منذ اضطربت السياسة

وتلاحقت الخطوب ومكر بعض الناس ببعض وكاد بعض الناس لبعض ، وتوشك مصر أن تعرف بشجعان الناس كما عرفت بشجعان الحيات .

قالت السيدة متضاحكة وكانت أريبة . حسبك فقد روعتنى وأخشى أن تكون قد روعت نفسك ، فاذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعوذ بالله من أن يتخبطه الشيطان عند الموت ومن أن يموت فى سبيله مدبرا ومن أن يموت لديغا .





سـمير الـلـيل

لا تكلف نفسك مشقة ولا جهدا فلن يتاح لك حل هذا اللغز بالمشقة والجهد ولا بالروية المتصلة والتفكير الطويل . وليس مصدر ذلك ان هذا اللغز عسير الحل ، ولا أن الطريق إلى حله ملتوية متشعبة يوشك سالكها ان يجور فيها عن قصد السبيل ، بل مصدر ذلك ان هذا اللغز يسير جدا ايسر مما تقدر واقرب إلى الحل مما تظن ، وأن الطريق إلى فهمه قصيرة مستقيمة لا طول فيها ولا التواء . فأنت ترى صاحبنا أعجوبة من أعاجيب الدهر وغريبة من غرائب الزمان . تجلس إليه فلا تكاد تسمع منه صوابا ولا تكاد تفهم عنه شيئا ، وتتحدث إليه فلا يفهم عنك إلا أيسر ما تقول ولا يكاد يرد عليك رجع الحديث حتى يأخذك شيء من العجب لانك لا تدرى أتتحدث إلى عاقل ام تتحدث إلى مجنون .

وأنت تنظر إلى جسمه هذا الذى يمتد عن يمين وشمال ، ومن وراء وأمام ولا يكاد يرتفع فى الجو إلا قليلا ، ولا يكاد يجد من الناس وكراسيهم ما يسعه كما يسع غيره من الناس ، فيخيل إليك ان هذا اللحم المتراكب والشحم المتراكم قد ألقى بين نفسه وبين العالم حجبا صفاقا واستارا كثافا .. فهى لا تكاد تحس من العالم شيئا والعالم لا يكاد يبلغها إلا بعد عناء شديد ، وأنت تنظر إلى وجهه الضخم الجهم فترى على شفتيه الغليظتين ابتسامة تدل على البله والغفلة أكثر مما تصور الفطنة والذكاء ، وترى أنفا ضئيلا قد كاد يغرق فيما يكتنفه من لحم خديه ، وجعل النفس يتردد فيه محتبسا مختنقا يسمع له صوت ثقيل بغيض . وترى جبهة ضيقة بارزة قد انبسط فوقها رأس مفرطح عريض قل فيه الشعر وأخذ فيه الصلع ، وجعلت تبدو من خلاله رقع ضيقة جرداء حتى أنكره وكره أن يكشف رأسه إلا قليلا

وترى عينين مغمضتين كأن صاحبهما نائم مغرق فى النوم فإذا أراد أن ينظر إلى شىء أمامه ، أو إلى إنسان بين يديه ، رفع جفنين متكسرين ورفعهما فى شىء من الجهد فبدت من دونهما عينان صغيرتان منطفئتان لا تصوران يقظة ولا نشاطا ولا ذكاء ، وإنما تصوران نوما وخمولا وغباء شديدا ، فإذا استمعت له وهو يتحدث اضطررت أن تجهد أذنيك لينقل عنه الصوت إليك لانه يتكلم فى صوت ليس بالنحيل ولا بالضئيل ولكنه مع ذلك ليس بالقوى ولا بالمرتفع ؟ وإنما هو صوت وسط بين ذلك مطرد منكسر أشبه شىء بالماء الفاتر يريد أن يجرى جريانا سواء فتعترضه عقبات يسيرة جدا يتغلب عليها وينشأ عن ذلك فيه تهدج وانحطام بين حين وحين ، فمنظره يؤذيك والاستماع له يضنيك والفهم عنه يشق عليك والوصول إلى نفسه يرهقك من أمرك عسرا . والحكم الذى تكونه فى نفسك حين تقبل عليه أو تنصرف عنه هو أنه غلطة من غلطات الطبيعة وفلتة من فلتات الدهر ، ووهم من أوهام الظروف . كأنما أريد به إلى أن يكون حيوانا من هذه الحيوانات الضخمة ذات الخلق المرتبك والشكل الذى لا يروق ، ثم عدل به فى اللحظة الأخيرة إلى شكل الإنسان فلم يحسن تقويمه ، ولم يعتدل قده ، ولم يتسق شكله ، ولم ينفخ فيه من الروح الإنسانى العاقل إلا جزء ضئيل ؟ .

كذلك تحكم عليه حين تلقاه وكذلك تحكم عليه حين تفارقه لولا أنك مضطر إلى أن تنكر هذا الحكم إنكارا وترفضه رفضا وتعترف كما أعترف بأن له حظا عظيما من الذكاء والفطنة ، وبأنه يدبر أمره فى حياته الخاصة والعامة تدبير المستبصرين أولى الذكاء النافذ والذهن المتوقد والعقل الذى لا يعبأ بالمشكلات ولا يرتد عن معضلات الأمور . وأنت حائر كل الحيرة فى هذا التناقض بين ما يظهر من شكله ومن عقله ، وبين ما يصدر عنه من الأعمال والأقوال التى لا تصدر عن غفلة ولا عن غباء .

ومصدر هذا التناقض الذى تضيق به وتراه لغزا معضلا وتريد أن تلتمس له الحل فلا تجد إلى حله سبيلا ، انك لم تعرفه كما أعرفه ،

ولم تظهر من أمره على ما أظهر عليه . فصاحبنا أعجوبة من غير شك ، ولكنها أعجوبة لا تكاد تثبت لمن يعرفه حق معرفته . وسبيل ذلك أن تصحبه يوما كاملا ، يوما يأتلف من النهار والليل . فالنهار وحده لا يفسره والليل وحده لا يجلوه ولابد من أن يتعاون هذان الفرسان اللذان يستبقان دائما ولا يستطيعان أن يجتمعا فى مستقر واحد ، لابد من أن يتعاون هذان الفرسان على تفسير غامضه وتجلية أمره لانهما قد اقتسما نفسه اقتساما كاملا .

فللنهار منه نصيب لا يعرفه الليل ، وللليل منه نصيب لا يبلوه النهار ، وأية ذلك ان عين الفجر لم تره قط إلا مغرقا فى نوم ثقيل أو غارقا فى سكر عميق ، وان عين الضحى المشرق لم تره قط إلا يقظان الجسم نائم النفس . وان صدر الليل لم يره قط إلا مرحا فرحا خفيفا رشيقا كأنه لا يحمل هذا الجسم الضخم الثقيل وإنما يحمل جسما قد صور من الهواء ، فهو لا يسكن إلا ليتحرك ، ولا يستقر إلا ليضرب ولا يسكت إلا ليتكلم . وهو لا يتكلم بهذا الصوت الفاتر المتكسر ، وإنما يتكلم بصوت مرتفع عريض يملأ الفضاء ويسمع من بعيد ، وهو لا يجد مشقة ولا جهدا فى رفع جفنيه ، ولا فى التنفس من أنفه الدقيق الضئيل ، وابتسامته تلك الغافلة البلهاء تستحيل إلى ابتسامة أخرى فيها كثير جدا من الفطنة وفيها كثير جدا من الذكاء .

وهو على كل حال ليس نائما إذا جنه الليل وإنما هو أبعد الناس عن النوم وأعظمهم حظا من اليقظة ، بل قل أنه يقظة كله ، يقظة لا تنام ولا تنيم ، وإنما توقظ الناس من حوله ولعلها تزعجهم إزعاجا ، فهو حياة ثائرة فائرة ، وهو حركة هائجة ، وهو تفكير متصل لا يعرف الانقطاع ، وكلام مسترسل لا يعرف الوقوف .

فله نفسان ، نفس قد صحبت النهار تنام فيه وتؤذن الناس بأنها مستيقظة ، ونفس قد صحبت الليل ، تسهد فيه وتخيل إلى الذين لا يألفونه أنها نائمة . وكل ما يصدر عنه من الأعمال التى تصور الذكاء ومن هذه الأقوال التى تصور الفطنة إنما هو من وحى نفسه المستيقظة فى الليل ، تقدره وتدبره ثم تهيئه وتدخره لنفسه النهارية النائمة فيصدر عنها كما تصدر الأحلام عن النائمين .

ولم يكن هذا حاله منذ مارس حياة الرجال وإنما طرأ عليه قليلا قليلا، كما تطرأ بعض العلل على بعض المرضى. فقد كان في المدرسة الثانوية وأثناء الدراسة الجامعية في مصر وفي أوربا فتى كغيره من الفتيان يشارك أترابه في الدرس ويشاركهم في العبث والمرح، ولكنه يمعن في الدرس أكثر مما كانوا يمعنون ويبلغ من النجح أكثر مما كانوا يبلغون. فإذا أقبلوا على مرحهم استوفى منه حظا أعظم من حظوظهم، وألح فيه إلحاحا كثيرا ما كانوا ينكرونه عليه ويلومونه فيه، فلم يكن يلقى لومهم إلا بالسخرية ولم يكن يستقبل أعراضهم إلا بالازدراء.

وماله لا يفعل ذلك وإسرافه على نفسه في اللهو لا يقصر به عن إتقان الدرس والتفوق على أترابه فيه. وما الذى يمنعه أن يعطى نفسه من لذة العقل أعظم حظ ممكن، وأن يعطي جسمه من لذة الحس أكبر قسط مستطاع. ولماذا ينصف نفسه بما يتيح لها من لذة العلم والمعرفة، ويظلم جسمه بحرمانه لذة العبث والمجون، وكذلك أنشأ لنفسه فلسفة خاصة لاءمت حياته في أوربا ملاءمة ما ولكنها لم تلائم حياته في مصر. فللأوضاع الاجتماعية في مصر خصائصها التي تفرض على الناس، ولا سيما حين يشغلون المناصب ويرضون الرؤساء ويرقون رقيا سريعا، ألوانا من الوقار وضروبا من الاحتشام تضطرهم إلى شيء من الجد والحرمان إن كانوا أصحاب عبث ومجون.

ومن أجل ذلك ضاق صاحبنا بالحياة أول الأمر ضيقا شديدا انتهى به إلى سأم شديد، وكاد ينتهي به إلى يأس مظلم، فقد رأى أبواب العلم والمعرفة والدرس والبحث مفتحة له على مصاريعها. ورأى فرص اللهو والعبث نادرة ووسائلهما محدودة وأبوابهما لا تكاد تفتح إلا قليلا، ولا تكاد تفتح إلا لتغلق، فإذا هم أن يلج منها إلى ما يريد اضطر إلى كثير من الحذر والاحتياط لان الأوضاع الاجتماعية في ذلك الوقت كانت تفرض الحذر والاحتياط، وقد هم أن يرضى نفسه ويهمل حسه وأن يمعن في لذة العلم ويزهد في لذة الاثم، ولكنه لم يلبث أن

أنس من نفسه زهدا فى المعرفة وانصرافا عن الدرس وفتورا عن البحث والدرس . ونظر فإذا هو يوشك أن يكون موظفا كغيره من الموظفين الذين يضطربون من حوله خاملين لا يضيقون بالخمود والخمول ، بل لا يشعرون بالخمود والخمول ، وإنما هم راضون عن أنفسهم وعن حظوظهم ، قد اطمأنوا إلى الحياة واطمأنت إليهم الحياة .

وكان صاحبنا أبعد الناس عن الرضى وأبغضهم للاطمئنان وأشدهم طموحا إلى الرقى وطمعا فى الامتياز ، فلم يكد يفكر ويقدر حتى استيقن ان فلسفته تلك قد خلقت له وانه خلق لها وانها وحدها هى، التى تستطيع أن تبلغه ما يريد من علو المنزلة وارتفاع المكانة ومادام لا يرضى بالقليل ولا يقنع بما يقنع به عامة الموظفين ولا يكفيه أن يخطو إلى الامتياز خطوات متئدة معتدلة وإنما يريد ان يخطف الطريق خطفا وينهبها نهبا ويأتى بما لم تستطعه الأوائل كما يقول أبو العلاء ، فلابد من أن يلجأ إلى فلسفته فيحيا بها ويحيا لها .

وقد فعل فاعتزل الناس إلا قليلا ، جعل يلقاهم فى الديوان حين يغدو على عمله فى الديوان وجعل يلقاهم آخر النهار ان اضطرته الظروف إلى أن يلقاهم آخر النهار ، ولكنه جعل لا يكاد يستقبل الليل حتى يبتسم لظلمته المظلمة ابتساما مشرقا ، ويمد إليه يد الصديق ويفتح له قلب الخليل ويتحدث إليه كما يتحدث الحبيب إلى الحبيب .

اتخذ الليل سميرا ونديما واتخذ الشراب سميرا ونديما واتخذ الكتاب سميرا ونديما أيضا فجعل كلما أقبل الليل خلا إليه وإلى كتابه وشرابه ففكر وقرأ وكتب ، واحتسى بين ذلك الكأس أثر الكأس حتى إذا تولى الليل إلا اقله وكادت توالى نجمه تتغور كما يقول ابن أبى ربيعة ، أعرض عن الشراب كارها وانصرف عن الكتاب محرجا يضطره إلى هذا الانصراف وذلك الأعراض انه لا يستطيع أن يمسك الليل ولا أن يرد النهار ، وأن للقراءة والتفكير والشراب أثرا فى العقل والجسم جميعا فلابد من الراحة بعد التعب ومن النوم بعد السهاد الطويل . فهو إذن يسعى سعى المقيد فى الوحل كما يقول مسلم بن الوليد حتى يبلغ

سريره فيلقي نفسه عليه إلقاء ويستسلم للنوم استسلاما وما أكثر ما كان يقبل على السرير والنوم وهو يبغضهما أشد البغض ، ويمقتهما أقبح المقت ، ولكن لابد مما ليس منه بد . على أن النوم لا يلبث أن يطبق عليه أطباقا ويضمه ضما عنيفا ثقيلا قصيرا أيضا .

فهو يستيقظ قبل أن يرتضع الضحى ويغدو على عمله كما تعرفه نائما أو كالنائم ممضافى هذا الذهول الغريب . وقد طالت تجربته لهذا النوع من الحياة أو لهذين النوعين المختلفين من الحياة حتى الفهما الفا متصلا ، واصبح لا يستطيع أن يحيا إلا كما نراه نحن فى النهار ، كما يراه الله وقليل من الاخلاء فى الليل .

على ان حياته هذه المختلفة لم تلبث إلا قليلا حتى ظهرت آثارها فى رأيه وعمله وسيرته مع الناس . فهو أذكى من أن يأمن السكر على آرائه وأعماله وأقواله فهو من أجل ذلك قد أساء الظن بنفسه فجعل لا يرى رأيا إلا أطال التفكير فيه والتقليب له قبل أن يعلنه ، يتهم فيه ليله هذا السكران ويخشى أن يدفعه إلى غير الصواب . وهو لا يقدم على عمل إلا بعد التردد المتصل وبعد الاحجام الطويل ، وهو لا يقول قولا إلا بعد أن يزنه كما يزن الصيرفى دنانيره بميزانه الحساس الدقيق . ثم جعل سوء ظنه بنفسه يقوى ويشتد ويمتد حتى تناول الناس جميعا ، وإذا هو لا يصدقك إذا استمع إليك كما أنه لا يطمئن إلى ما تهدى إليه من قول أو عمل ، لانه يتهم الناس جميعا فيما يقولون ويعملون كما يتهم نفسه فى كل ما يعمل ويقول ، ويريد سوء حظه أو حسن حظه لا أدرى أن تبتسم له الأيام ويستجيب له الحظ فيرقى ويرقى ويسرع إليه الثراء ، وإذا هو يشعر كما يشعر غيره من الناس بأنه فى حاجة إلى ان يكون لنفسه أسرة ويؤسس لنفسه بيتا فيتخذ الزوج ولكنه لا ينعم بالزواج إلا أياما . فقد صرفته زوجته عن ندمائه . الليل والشراب والكتاب صرفته فانصرف أول الأمر ثم لم يلبث ان ادركه السام فجعل يرد نفسه إلى ندمائه هؤلاء شيئا فشيئا . وهو كلما رد من نفسه جزءا إلى ندمائه حرم زوجته هذا الجزء من نفسه فسعد هو وشقيت هى حتى إذا عادت نفسه كلها إلى ندمائه نعم بسعادته الكاملة

وشقيت بحرمانها الكامل . وعاش الزوجان فى دار واحدة ولكن كلا منهما أصبح لصاحبه عدوا يظهر الحب ويضمر البغض .

قلت لصاحبى حين بلغ هذا الموضع من حديثه أو تظن الأمور تستقيم لهذا الكائن الغريب على هذا النحو الغريب من أنحاء الحياة ، قال صاحبى : هيهات وكيف تستقيم الأمور لرجل يسامر ظلمة الليل التى تعشى الأبصار وظلمة الخمر التى تغشى البصائر ، ألم أنبئك بأن حبه لهذه الظلمات قد أفسد عليه حياته الروحية ودفعه إلى الإسراف فى سوء الظن بنفسه وبالناس ، ومتى استقامت الأمور لمن يقيم حياته على الإسراف فى سوء الظن بنفسه وبالناس .





طيــــف

القى كل واحد منهما إلى صاحبه نظرة دهشة واجمة ، فيها كثير من هذه الغفلة الحائرة التى تنشأ من المفاجاة والتى تلم بالآمن المطمئن حين يفجاه من الأمر مالم يكن ينتظر ، بل مالم يكن يخطر له ببال ، وكانت النظرة التى القاها كل منهما إلى صاحبه خاطفة أول الأمر ، ولكنها عادت فطالت واستقرت شيئا ما ، ولزمت مع ذلك صمتا ، ان صور شيئا فانما يصور انعقاد اللسان حين تسيطر الحيرة على العقل فلا يفكر ، وعلى القلب فلا يشعر ، وعلى اللسان فلا يقول .

وقد لبث كل منهما بإزاء صاحبه ذاهلا غافلا لا يعرف ماذا يصنع ولا يدرى كيف يقول ، ولو قد عرض لهما هذا اللقاء المفاجيء لاصابتهما الحيرة وقتا طويلا أو قصيرا ، ولتهيأ آخر الأمر إلى مخرج من هذه الحيرة بكلمة تنفرج عنها الشفاة ، أو ضحكة تنفغر لها الأفواه ، ولكنهما في موقفهما هذا لم يكونا يستطيعان . ان يخرجا من حيرتهما الصامتة إلى الضحك أو إلى الكلام . فقد كان بينهما هذا القبر القائم يضطرهما إلى شيء من الوقار لايملكان معه ضحكا ان أرادا الضحك ، ولا كلاما ان أرادا الكلام . وهما من أجل ذلك قد لبثا صامتين واجمين . يلتمسان مخرجا من هذا الصمت . ومنصرفا عن هذا الوجوم ، فلا يجدان الى شيء من ذلك سبيلا . وقد أخذ كل واحد منهما يحدث نفسه بالانصراف عن هذا القبر يرى فى هذا الانصراف فرجا من هذا الحرج ، ومخرجا من هذا الضيق ، ولكن كل واحد منهما كان يسأل نفسه أيبدأ هو بالانصراف أم ينتظر حتى يضطر صاحبه إلى أن ينصرف ؟ وانهما لفى هذه الحيرة المتصلة ، وإذا خطر يسمع وقعه من بعيد ، فيرفعان رأسيهما وينظران من حيث يسمعان ، فإذا شخص يقبل

بطيئا رزينا متكلفا للوقار ، ولايكاد يدنو منهما حتى يعرفاه كما يعرف كل واحد منهما نفسه ، فهو صديقهما الثالث الذى تعود أن يلقاهما حين يقبل المساء من كل يوم ، وان يسمر معهما حيث تعودوا أن يسمروا فى ناد من أندية القاهرة أول الليل ، وأن ينصرف معهما إلى حيث تعودوا أن ينصرفوا حين يوشك الليل أن ينتصف ، فيلقون فى بعض الأندية الخاصة من يلقون من رفاق اللهو وخلان العبث والمجون ، حتى إذا كاد الليل يبلغ ثلثيه أو ى ثلاثتهم إلى تلك الدار التى تعودوا أن يأووا إليها فى آخر الليل ، وقد خلصت نفوسهم حظ اللهو ، وصفت ضمائرهم للعبث ، وحسن استعدادهم للمجون أو قل أن شئت لاستيفاء حظهم من المجون .

هنا لك يكون شرب الكؤوس الأخيرة ، وهنالك تنطلق الألسنة بما تشاء فى غير تكلف ولا تحرج ، وهنالك ترسل النفوس على سجيتها فى غير احتياط ولاتحفظ ، وهنالك يخلع الإنسان عن نفسه هذه الخصال المصطنعة التى فرضتها الحضارة على المتحضرين . ويصير إلى حال من الإنسانية المترفة الفاجرة التى تنحط بصاحبها ، أو ترتقى بصاحبها لا أدرى ، إلى حيوانية مترفة لا أدب فيها ولا وقار . حتى إذا انهزم الليل وولى مدبرا وانتصر الصبح وأقبل ظافرا ، انسلوا من هذه الدار لاتكاد أقدامهم تحملهم ولا تكاد اجسامهم تسع نفوسهم ، ولا تكاد السنتهم تنطق ، ولا تكاد عقولهم تفكر ، ولا تكاد قلوبهم تشعر ، لانهم قد اسرفوا على أنفسهم فى الاستمتاع بانسانيتهم المهذبة ، التى نعمت حتى أفسدها النعيم وأثرت حتى اطغاها الثراء ، وارتقت حتى انحدر بها الارتقاء إلى الدرك الأسفل من الانحطاط ، ولا يكادون يبلغون باب الدار متثاقلين متهالكين يسندهم الخدم مكبرين لهم ساخرين منهم حتى يتلقى كل واحد منهم سائق سيارته فيقره على شىء من الجهد فى السيارة . يظهر الاكبار له ويضمر الاستهزاء به ، ثم يمضى بهذا المتاع الغالى الرخيص حتى ينتهى به إلى داره ، وحتى يرد منه إلى أهل الدار شيئا عظيما جدا فى أعين الناس حقيرا جدا فى عين نفسه وفى عين أهله ، وهو هذه البقية التى تركها الصبا واللهو والخلاعة والمجون .

فإذا تقدم النهار وارتفع الضحى ، وزالت الشمس أو كادت تزول ، أفاقت هذه البقية البالية من نومها الثقيل الغليظ وتلقاها عمال الترف أولئك الذين يجددون البالى ويحسنون القبيح ويقيمون المتهدم ويردون الشباب الى من فارقهم الشباب ، وما هى إلا ساعات حتى تستأنف هذه البقايا البالية حياة جديدة فيها نشاط وقوة ، وفيها جمال ونضرة ، وفيها شوق مجدد إلى اللهو وفيها نزوع مستأنف إلى المجون . ولا يكاد النهار يبلغ اخره حتى يخرج من هذه الدور أشخاص فيهم كثير من المرح ، وكثير من الفتون وكثير جدا من الجهل والغرور .

وإذا هؤلاء الأشخاص يلتقون فى ناديهم الذى تعودوا أن يلتقوا فيه ، فتكون الدعابة الفاترة وتكون الفكاهة الباردة ، ويكون المزاح السخيف ، ويكون الإقبال الفاتر على العبث الفاتر ، وكلما تقدم الليل ازداد النشاط واشتد المرح وعظم الخطر من العربدة ، وأخذ كل جسم من هذه الأجسام يصير ثوبا قد دخلت فيه نفس جنية طغى عليها الهوى وجمحت بها الشهوة ، واندفع بها حب الأثم الى غير حد وإذا هم يستأنفون ليلا ، كليلهم الماضى ويستقبلون حياة ناعمة يائسة كحياتهم الماضية ، ويعودون إلى دورهم مع الصبح بقايا محطمة لا تريد شيئا ، ولا تقدر على شىء ولا تصلح لشىء حتى يشتمل عليها النوم فيرد إليها شيئا من قوة . ثم يتناولها عمال الترف الذين يرفعون البالى ويجددون القديم حتى يردوا هذه البقايا البالية أشخاصا قادرة مريدة . ولكنها لا تقدر إلا على الفساد ، ولاتريد إلا الإثم والمجون .

ولكنهم فى هذه المرة لم يلتقوا فى ناديهم ذاك الذى تعودوا ان يلتقوا فيه حين يقبل الليل ، وانما التقوا فى مكان لم يكن ينتظر ان يلتقوا فيه ، ولا أن يذهب اليه واحد منهم ، فليس فيه لهو وليس هو مظنة للهو ، وليس فيه سمر ، ولا هو مظنة للسمر ، ومتى لها الناس بين القبور ؟ ومتى سمر الناس حول قبر لم تمض على إقامته إلا أسابيع قليلة ؟ كيف ذهب هـؤلاء النفر إلى هذا المكان الموحش فى قلب الصحراء ؟ وكيف التقى هؤلاء النفر حول هذا القبر الذى لم تستقر فيه صاحبته إلا منذ أمد قريب ؟ هذه هى المسألة التى القاها كل واحد منهم

على نفسه فوجد الجواب عليها سهلا يسيرا ، وهم ان يفكر فيها ويستقصى التفكير ويتعمقه ، لولا أنه لم يخلق للتفكير ولا للاستقصاء ولا للتعمق ، وانما خلق للعبث ، والمجون الذى يفسد المروءة ويذهب بنضرة الأجسام والنفوس .

فلم يكد ثالث القوم يرى صاحبيه حتى أخذه ما أخذهما من الدهش وعراه ماعراهما من الذهول ، وغشيه ماغشيهما من الوجوم ، ولكنه لم يملك نفسه طويلا ، وانما هم أن يضحك ثم استحى من الغير فولى مدبرا وتبعه صاحباه ، حتى إذا بعدوا عن هؤلاء القوم اللذين لا تزاور بينهم ولا وصل إلا أن يكون نشور كما يقول أبو نواس ، تساءلوا كيف كان سعيهم إلى هذا المكان ، ووقوفهم عند هذا القبر ، والتقاؤهم على غير ميعاد .

وقد جعل بعضهم يكذب بعضا في شيء من الحيرة المتبلدة أو من التبلد الحائر ، ولكنهم تواصفوا مارأوا ووزانوا بين ما سمعوا فلم يروا بدا من ان يصدق بعضهم بعضا ، ولم يروا بدا من ان يعترفوا بهذا الأمر الغريب العجيب الذى كان خليقا ان يملأ قلوبهم روعا ونفوسهم هولا ، لولا انهم تعودوا ان يجدوا فى الكاس ما يغسل قلوبهم من كل روع ، وينفى عن نفوسهم كل هول . ولست أدرى الام صارت أمورهم جميعا ؟ ولكن أعلم أن احدهم على اقل تقدير قد أدركه ذهول يشبه الجنون ، وغفلة تشبه الخبل وألمت به علة لست أدرى أيثبت لها أم يعجز عن أن يقاومها ويجد إلى البرء منها سبيلا .

وقد تسالنى أنت عن سعيهم إلى هذا المكان الموحش فى الصحراء ووقوفهم عند هذا القبر الذى لم يقم إلا منذ أمد قريب ، والتقائهم على غير ميعاد بين هذه القبور حين أخذت الشمس تنحدر إلى مغربها ، وتجرر على هذه القبور أشعة شاحبة ، أن صورت شيئا فانما تصور حزنا كأنه كان صدى يردده الجو لهذا البلى الذى كان يعمل جاهدا فيما احتوته هذه القبور .

ولست أكره أن أقص عليك مصدر هذا كله . ولكنى اعتقد انك ستدهش لما أقص إليك من حديث . فانت وما شئت من الشك ، وانت

وما أحببت من الثقة وانما الشيء الذى أطمئن إليه أنا كل الاطمئنان ، هو انى انما أحدثك بشيء قد وقع وأصور لك فى هذا الحديث أمرا قد كان ، وكل ما أتمنى هو الا يعرض لك مثل ماعرض لهؤلاء النفر الثلاثة الذين افسد عليهم أمرهم ما أغرقوا فيه من عبث ولهو وما تهالكوا عليه من أثم ومجون .

كان هذا القبر الذى التقوا عنده مستقرا لغانية حسناء رائعة الحسن ، بارعة الجمال ، فاتنة الظرف ساحرة الطرف ، تعودوا ان يلقوها فى تلك الدار التى كانوا يأوون إليها من آخر الليل ويستنفدون فيها مابقى لهم من قدرة على المجون والعبث ، وكانت تلقاهم لقاء سواء تعدل بينهم فيما تهدى إليهم من ظرفها وخفتها ومن رشاقتها وأناقتها ولباقتها ، ومن هذا التودد الذى يغرى ويطمع حتى يخيل إلى المرء أنه مشرف على الغاية ، ومنته إلى الأمد ، وبالغ مايريد ، ثم هو لاينتهى به مع ذلك إلا إلى اليأس المهلك ، والقنوط الذى يملأ القلوب لوعة وعذابا ، فكان كل واحد من خلانها يستطيع ان يتمثل قول جميل .

ومنيتى حتى إذا ما ملكتنى بقول يحل العصم سهل الإباطح
تناءيت عنى حين لا لى حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح

ولكنهم كانوا أجهل جهلا ، وأحمق حمقا ، وأفرغ أفئدة ، واسخف عقولا ، من ان يتمثلوا الشعر أو شيئا يشبه الشعر . انما كانوا أصحاب لذة غليظة جافية يشقون ليتنعموا . وينعمون ليشقوا ، ويألمون ليلذوا ، ويلذون ليألموا دون أن يوازنوا بين شقاء ونعيم ، أو بين لذة وألم ، قد دفعوا إلى الحياة وما فيها من نعيم وبؤس ، فهم مندفعون إلى الحياة لا يفكرون فى نعيم ولا بؤس . دفعهم إلى هذه الحياة المنكرة ثراء لم يجدوا فى كسبه عناء ، وتربية لم تمنحهم أحلاما راجحة ولا بصائر نافذة ، ولا قلوبا قادرة على ان ترتفع عن اللذات المادية الآثمة والشهوات المندفعة الجامحة .

فكانوا إذا يلقون صاحبتهم تلك فيمن يلقون من خليلات اللهو ورفيقات العبث والمجون يجدون فى هذا اللقاء حبا وبغضاء ، ورضى وسخطا وانجاحا واخفاقا . ولكنهم قد اتصلت نفوسهم جميعا بهذه

الفتاة اتصالا شديدا وتعلقت قلوبهم بها تعلقا عنيفا . واشتدت آمالهم فيها وعظم يأسهم منها حتى أخذ بعضهم ينفس على بعض مايصدر عنها من لفظ ولحظ وإشارة . وحتى كاد بعضهم يصبح فيها لبعض عدوا . وهم على ذلك كانوا يجتمعون ويفترقون لايزيدهم الاجتماع ألا تنافسا وتباعدا ولا يزيدهم الافتراق إلا حرصا على التدانى وتكلفا باللقاء .

وقد أخذ كل منهم يظن بصاحبه الظنون ، يزعم انها تؤثر فلانا من دونه ، ويشتد حقده على فلان ومكره به ، وكيده له ، حتى كاد الأمر ينتهى بهم إلى أعظم الشر . ولكن الأيام أراحتهم من هذا العناء المهلك ، فردت عنهم هذا الشر المستطير ، لأنها اختطفت من بينهم هذه الغادة الحسناء فى حادثة من هذه الحوادث التى تنقل الناس من الدار الأولى إلى الدار الآخرة فى طرفة عين . فاجتمعت قلوبهم على الحزن والثكل وحزن هؤلاء وأمثالهم لا يتصل ولا يطول ، فما هى إلا أيام حتى يستأنفوا حياتهم كما ألفوها عابثة ماجنة وسخيفة فارغة .

ولكن أحدهم يفيق من نومه مروعا ، مفزعا ، شديد الذهول فقد رأى طيف هذه الغادة الحسناء يلم به فى اثناء نومه الثقيل فيذود عنه النوم ويرده إلى يقظة شديدة . وإذا هو ينظر فيرى صاحبته كما تعود أن يراها فاتنة ساحرة تدنو منه وتتلطف له وتتودد إليه ، وتقول له فى صوتها العذب الذى يسحر القلوب : ما كنت أحسب انك ستتركنى حيث أنا وحيدة مستوحشة لاتهدى الى زيارة ولا تحدث بى عهدا ، ما أسرع ما نسيتنى وانى على ذلك لم أنسك ، ولا يمكن ان أنساك . ألمم بدارى قبل ان يقبل الليل ، ثم تنصرف عنه وينظر فلا يرى شيئا . ويتسمع فلا يسمع شيئا . وينهض فيستأنف حياته كما تعود أن يستأنفها كل يوم لا يلقى بالا إلى ما رأى ولا يلقى بالا إلى ما سمع ، فإذا كان الغد جاء الطيف كما جاء أمس وتحدث إليه بمثل ماتحدث به أمس .

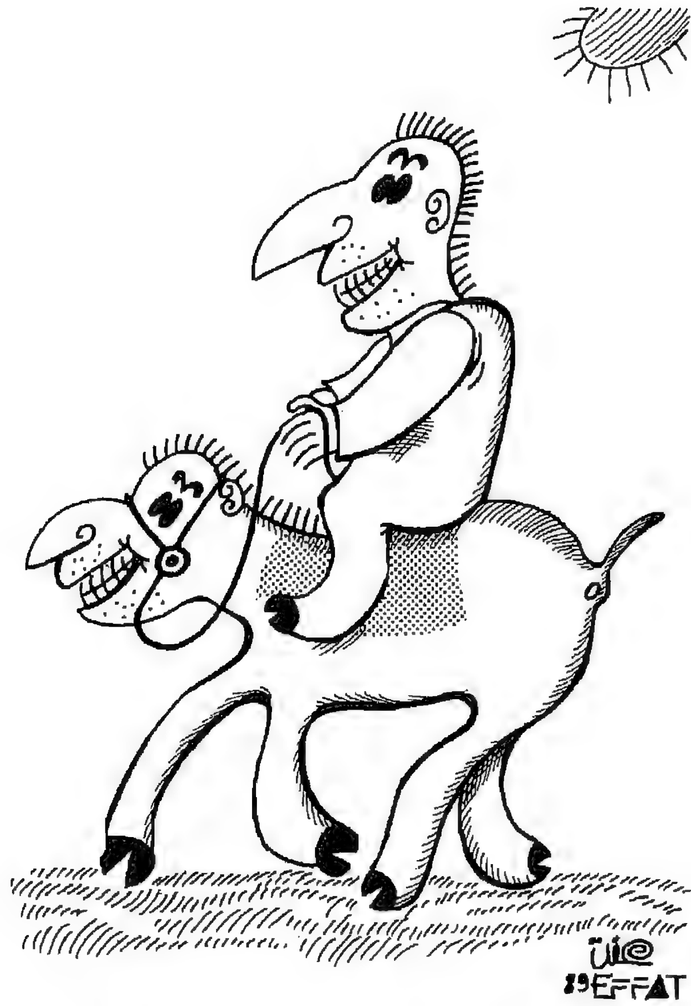
وقد تكررت هذه الزيارة مرة ومرة ، حتى لم يشك فى ان من الحق عليه ان يلم بهذا القبر وأن يهدى إليه تحيته فى طاقة من الزهر . وقد فعل ، فلم يكد يبلغ القبر حتى رأى صاحبه ولم يكد يقوم على القبر مع

صاحبه حتى أقبل صاحبهما الثالث . فلما انصرفوا عن القبر قص احدهم على صاحبه ما رأى وما سمع . فإذا كل واحد منهما قد رأى مثل ما رأى ، وسمع مثل ما سمع ، وابطا مثل ما أبطا ، ثم أقبل على القبر كما أقبل عليه يحمل إليه التحية وطاقة من الزهر .

أتراها أرادت ان تستبقي بينهم المنافسة والخصام بعد موتها ، وان تضطرهم إلى أن يحفظوا لها من الود مثل ما كانوا يظهرون لها قبل ان تموت ؟ أم تراها أضغاث أحلام قد عبثت بنفوس هؤلاء النفر الثلاثة . ولكن كيف يتفق ان يلم الطيف بهم في يوم واحد ويتراءى لهم في صورة واحدة ، ويلقي إليهم حديثا واحدا أو يضرب لهم موعدا واحدا .

قلت لصاحبي حين انتهى من حديثه إلى هذه الأسئلة ، لا أدري ولا استطيع ان أفتح عليك ، فسل من شئت من الجامعيين الذين يدرسون دقائق علم النفس فلعلك تجد عندهم غناء .





أم خفيف

لاتخدعي عنه ياسيدتي انك ترينه مكينا ركينا ورزينا رصينا يسعى هادئا إذا سعى ويمشى مطمئنا إذا مشى ، ولكنك لم تريه حين يأخذه المرح ويستخفه النشاط إذا خرج للرياضة فى الصحراء مصبحا أو ممسيا . ولو قد رأيته إذ ذاك لعلمت أنه يحسن الجرى ويجيد العدو ويتقن الوثوب فى الهواء والتلوى فى الفضاء ، ولخيل اليك ان جسمه الضخم العريض القوى المتين لم يركب كما ركبت أجسام الناس ، وانما وصلت اجزاؤه بلوالب تمتد ان أراد لها امتدادا ، أو تنقبض أن أراد لها انقباضا ، وانك ترينه معتدل الحركة مقتصدا فيها ، ان حرك رأسه كأنما شد عنقه من بين كتفيه بأمراس الكتان إلى صم الجندل كما يقول الشاعر القديم . بل هو اقدر على أكثر من ذلك فهو مالك لاجزاء وجهه يحرك منها ما يشاء حين يشاء ويسكن منها ما يشاء حين يشاء ويحركها كلها أحيانا ، إذا أراد أن يسحر ويبهر أو ان يرهب ويخيف ولو رأيته حين يستخفه الطرب ويستهويه نعيم الحياة لرأيت رجلا لايملك من أمر نفسه شيئا ، وانما هو حركة متصلة مضطربة . لا حظ لها من وقار ولانصيب لها من اعتدال ، كانما فقدت هذه القوة الإرادية التى تحرك الأجسام بمقدار وتسكنها بمقدار وتلائم بين عواطف القلب وحركات الجسم ملاءمة الذين لاتتسلط عليهم الغرائز وانما تدبر أمرهم العقول .

وانك تسمعينه يتحدث فإذا صوت هادىء متزن ولفظ مطمئن متئد ، وحكم يظهر فيه القصد وتشيع فيه الاستقامة ويأخذه الاعتدال من جميع أقطاره ، ولو قد سمعته حين يثيره الغضب أو حين يزدهيه الخوف ، أو حين يغلبه الرضى على أمره ، لعرفت كيف يرتفع الصوت حتى يصم الاذان وكيف يضطرب اللفظ حتى لايستقيم تاليفه على نحو

من أنحاء الكلام المألوف ، وكيف يختلط الحكم حتى لاتدركه العقول ولاتسيغه القلوب ، وانك ترين عليه زينة تاخذ الأبصار وشارة تستهوى العقول .

ولو رأيته حين يتخفف ولايتكلف ، لرايت الاهمال الذى تقتحمه العيون والابتذال الذى تزور عنه النفوس ، وانما هى حياة الناس ياسيدتى تقوم على التكلف اكثر مما تقوم على الاسماح وتجرى على الرياء أكثر مما تجرى على الإخلاص ، وتمضى على الكذب أكثر مما تمضى على الصدق ، وتعطى من الناس صورا ليس بينها وبين حقائقهم سبب ، وتردد من أصوات الناس اصداء ليس بينها وبين نفوسهم صلة ، قد جرى فيها الخداع كما يجرى الماء فى الغصن الرطب ، وسرى فيها النفاق كما تسرى النار فى الحطب الجزل ، انك ترينه ياسيدتى يذهب ويجىء فترضين لأنه إنما يذهب ويجىء فى ثوبين خلع احدهما على نفسه وخلع الآخر منهما على جسمه . وهو كغيره من الناس يلبس هذين الثوبين حين يريد أن يفارق نفسه للقاء نظرائه ، ويخلع هذين الثوبين حين يريد أن يفارق نظراءه ليخلو لنفسه . وصدقينى ياسيدتى انى لم أخطىء حين شبهته منذ حين بالأوزة التى تعبث فى مجتمع من الماء ، انك ترينها من بعيد فيعجبك منظرها تطفو على الماء وقد بسطت جناحيها فى الماء مقبلة مدبرة وخافية ظاهرة . وارتفاعها فى الجو طائرة مقاربة فى الطيران تخفق بجناحيها خفقا لايخلو من ظرف وتبعث صيحات تؤذى الأذن ولكنها لاتخلو من فرح ومرح ، وقد يروقك شكلها حين تطفو على الماء وقد بسطت جناحيها ورفعت عنقها الطويل براسها الخفيف وعرضت للضوء والهواء صدرها الجميل . كل هذا يعجبك ويخلبك ، وقد يروعك ويروقك فتسعين إلى مجتمع الماء هادئة مطمئنة ، تودين لو استطعت ان تبلغى الشاطىء ، وتقفى من الأوزة غير بعيد وتديرى بينك وبينها بعض الحديث . ولكنك لاتلبثين أن تذكرى ان حماقة الأوز قد ضربت بها الأمثال منذ العصور القديمة في غير أمة من الأمم وفي غير لغة من اللغات . وإذا انت تلقين على الأوزة الجميلة نظرة طويلة فيها كثير من

حزن ، وفيها كثير من أشفاق ، وفيها كثير من ازدراء ، لأن طبيعتنا تنبو عن هذا التناقض بين الظواهر التى تخيل أشياء كثيرة والدخائل التى لاتحقق شيئا . وليس على صاحبنا بأس من أن يشبه الأوزة فى شكله وعقله ، لأنه لم يخلق نفسه ، ولم يلائم بين هذا الجسم الثقيل والعقل الخفيف ، وإنما هى حكمة الله التى نفهم أيسرها أحيانا ونعجز عن فهم أعظمها فى أكثر الأحيان .

وقد عرفت صاحبنا معرفة دقيقة متصلة منذ أيام الطفولة والصبى ، وفى أيام الشباب والكهولة ، واستطعت أن أقطع بأن كل شىء من حوله كان يهيئه ليكون أوزة ناطقة فقد نشأ فى أسرة موسرة من أسر الريف . وكان عطف أبويه عليه شديدا . فقد كانا يرفقان به مصبحا وممسيا ، ويتعهدانه بالعطف واللطف أناء النهار وزلفا من الليل ، وكانت أمه ترأمه وتعطف عليه عطفا خاصا كما تعرف الأم الجاهلة الغافلة كيف ترأم ابنها وتعطف عليه .

وكان أخص مظاهر حبها له وبرها به عنايتها بطعامه فقد كانت تصبحه بخير ما يصبح به أبناء الموسرين فى القرى من هذه الألوان التى تلذ الأفواه وتملأ البطون وتشيع فى الأجسام ضخامة وغلظا . ثم كان لايعود إليها من لعبه أو من كتابه أو من مدرسته إلا وجد عندها طعاما تلقيه فى فمه أو تدسه فى جيبه أو تضعه فى يده . فنشأ شرها متهالكا على الطعام ، وانفق صباه وشبابه يعلف فى أسرته كما يعلف الأوز فى تلك البيئات التى تتخذ تنمية الأوز تجارة ومكسبا .

وبمقدار ما كانت أسرته تعنى بجسمه فتسرف عليه فى المطعم وتتألق له فى الملبس ، كانت هذه الأسرة ترفق به أشد الرفق فيما يتصل بالدرس من قريب أو بعيد فلم تكن تشق عليه فى الملاحظة إذا عاد من المدرسة ، ولعلها كانت تضطره إلى الاعراض على القراءة والمذاكرة ، فقد كانت تخاف عليه من أيسر الجهد وتكره له الانحناء على الكتاب وتشفق على عينيه من ضوء المصباح . وكثيرا ما تقدم أبوه إلى معلمه فى الكتاب وإلى أساتذته فى المدرسة فى ألا يكلفوه من الدرس شططا . فهو لا يهيأ ليتخذ من العلم صناعة ولا من المدرسة

وسيلة الى كسب الحياة . وانما هو يذهب إلى المدرسة كما يذهب إليها أترابه من أبناء الاسر ليتعلم فيها مايرتفع به عن الجهل وما يميزه من أهل القرية التى يعيش فيها . ولكن الصبى كان يحب ان يتعلم لارغبة في العلم أو حرصا عليه ولكن عنادا لابويه هذين اللذين كانا يقتران عليه فى الدرس ويسرفان عليه فى الطعام والشراب . فقد سار الصبى فى درسه سيرا قصيرا فلم يكن متفوقا ، ولم يكن شديد الغباء ، وإنما كان شيئا بين ذلك حتى إذا أتم دراسته الثانوية رأى الحكومة تختار المتفوقين من اترابه فترسلهم إلى أوروبا ليتموا الدرس ويعودوا بعد ذلك ليشغلوا مناصب الدولة ويختلفوا إلى المكاتب فى الدواوين . ورأى بعض الأسر الغنية ترسل المقصرين من ابنائها عن نيل الشهادات المصرية إلى أوروبا لينالوا الشهادات الأوروبية . ونظر فإذا اترابه الذين كانوا يتفوقون عليه والذين كانوا لايبلغون منزلته يسافرون إلى أوروبا . فلم لا يسافر كما يسافرون ، ولم لايعبر البحر كما يعبرونه ؟ وليسوا أكثر منه مالاولا أبرع منه جمالا ولا أحسن منه شارة ولا أجمل منه زيا ولا أرقى منه ذوقا فى اختيار أدوات الزينة التى يتجمل بها الشبان المترفون . ثم هو يلوى لسانه بالرطانة الأجنبية كما يلوون بها ألسنتهم ثم هو يحسن التصرف فى أشياء لا يحسنون التصرف فيها . وإذن فلم يتاح لهم السفر ويقضى عليه ان يكون من المتخلفين ولم يجد مشقة فى ان يظفر من أسرته بالإذن له فى هذا السفر الطويل . فقد مانعت الأم وبكت وشكت ولكن الأب أجاب ابنه إلى ما أراد راضيا عنه ، مغتبطا به ، فقد كان يحب ابنه أشد الحب ويعجب به أشد الإعجاب ويرى فى سفره إلى بلاد الانجليز فخرا أى فخر وامتيازا أى امتياز . وقد ذهب الفتى إلى بلاد الانجليز وأقام فيها ما شاء الله أن يقيم وعاد منها لم يتعلم شيئا إلا التأنق والتحذق والبراعة فى لى اللسان حين يتكلم الإنجليزية والعربية جميعا . والافتنان فى ارتضاع البيبة كما يرتضع الطفل ثدى أمه .

عاد من بلاد الانجليز لم يتعلم غير هذا شيئا وهو واثق مع ذلك انه قد تعلم كل شيء . وقد اتيح له من ظروف الحياة المصرية ومن جاه

أبيه ما وصل اسبابه باسباب الحكومة . فعمل في ديوانه مترفا أشد الترف ، فارغا أشد الفراغ ، مشغولا بصغائر الأمور مصروفا عن عظائمها .

ثم كانت الحركة الوطنية واضطراب السياسية واختصام الاحزاب وانقسام الناس بين هذه الأحزاب مؤيدين ومعارضين ومتنفعين من المعارضة والتأييد . ومنذ ذلك الوقت تولت الظروف الارتقاء بصاحبنا من منصب إلى منصب ، ومن منزلة إلى منزلة ، حتى هيىء له من المكانة ما تعلمين . واغرب شيء فيه ماترين من اجترائه على التحدث في كل شيء والعجز عن أن يقول شيئا ، ومن براعته في النزول بعظائم الأمور وجسام الشئون إلى حيث تصبح ضئيلة يسيرة مبتذلة ، يرتفع عن الحديث فيها من اتاح الله له حظا من معرفة أو نصيبا من امتياز ، وهو على ذلك منتفخ منتفش ، يرى نفسه عظيما ، ويراه كثير من الناس عظيما ، فإذا حققناه لم نجد وراء هذه العظمة شيئا لانها عظمة منحولة مدخولة لاتعتمد على شيء من شخص صاحبها بقدر ما تعتمد على الباطل والغرور . وقد تسألين كيف ارتقت به هذه العظمة الكاذبة من درجة إلى درجة ، ومن مكانة إلى مكانة ، ولكنى أرجو ان تكونى أقل سذاجة من هذا ياسيدتى . فليس ينبغى أن تسألى عن الضعفاء والعاجزين كيف يرتفعون . فذلك ملائم لطبيعة الأشياء ، وانما ينبغى ان تسألى عن الاكفاء كيف يثبتون في مواضعهم وكيف يتاح لبعضهم ان يرقى إلى شيء من امتياز المنصب وارتفاع المكانة فذلك هو المخالف لطبيعة الأشياء ، المباين لمنطق الدنيا ، كما يقول كاتب أديب من أصدقائنا .

والشيء المحقق هو انى لم أر صاحبنا قط مقدما على شيء أو محجبا عن شيء ، أو مجادلا لخصم أو مناظرا لصديق إلا هممت أن أقول له ماقال ابن شهيد لاوزته تلك الاندلسية في تلك القصة الظريفة التى جرت بينه وبين حمير الجن وبغالها :

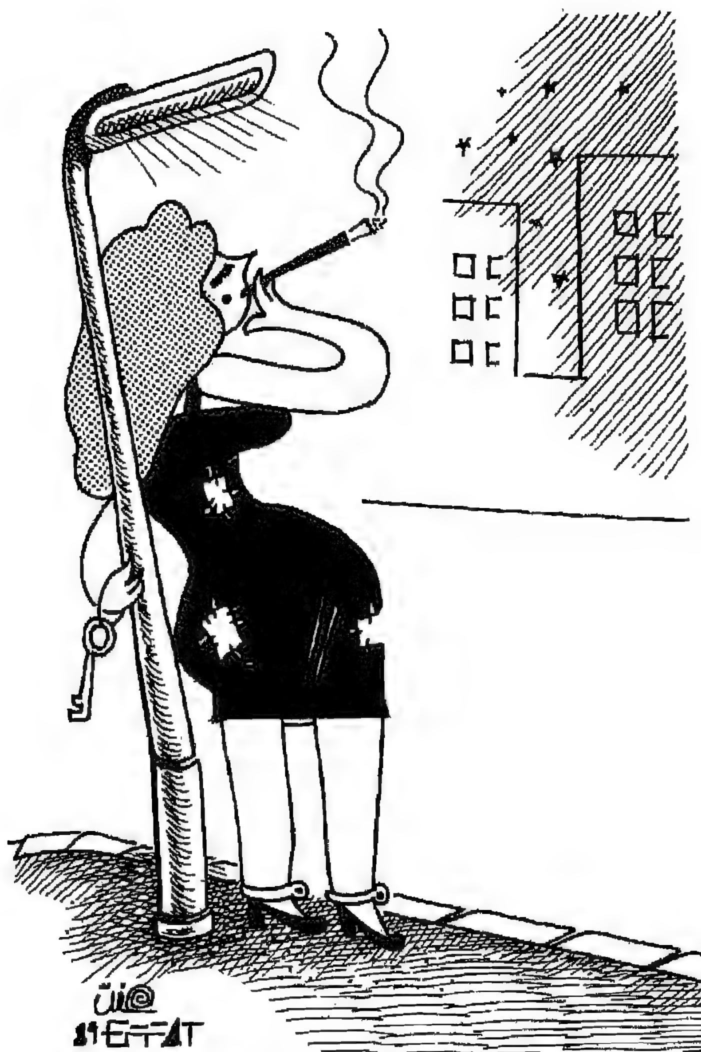
يا أم خفيف ، يالذى جعل غذاءك ماء ، وحشا راسك هواء ، ألا أيما أفضل : الأدب أم العقل ؟ قالت : بل العقل ، قال ابن شهيد : هل تعرفين

في الخلائق احمق من أوزة ، ودعيني من مثلهم في الحبارى ؟ قالت لا . قال ابن شهيد : فتطلبي عقل التجربة إذ لاسبيل لك إلى عقل الطبيعة ، فإذا أحرزت منه نصيبا ، وبؤت منه بحظ فحينئذ ناظرى في الأدب .

قالت السيدة متضاحكة : ليكن صاحبنا أوزة أو دجاجة أو ماشئت من ذوات الأجنحة والريش ، ولكن حدثني عن هذا البدع الذى اخذت فيه منذ حين . فقد جعلت لا أسألك عن أحد إلا ضربت له من الحيوان مثلا . قلت وأى بدع في ذلك ياسيدتي انما هو فن قديم من فنون الأدب . أليس العرب قد شبهوا الإنسان بالحيوان منذ أول الدهر ! أليس الله عز وجل قد شبه بعض الناس بالكلب الذى أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، أليس الله عز وجل قد ضرب الحمار الذى تحمل عليه الأسفار مثلا للذين حملوا التوارة ثم لم يحملوها . أو لست قد حدثتك انفا بقصة ابن شهيد مع أوزته تلك الأندلسية ، حين حاورها في روضة من رياض الجن بمحضر من زهير بن نمير وبمشهد من الحمير والبغال التى كانت تنشده أشعارها . فما تنكرين من ذلك ، والله لم يخلق الأشياء عبثا وانما جعل فيها لنا منافع ، ودعانا إلى ان نعتبر بكل ماخلق من الحى والميت وان نلتمس فيه الموعظة التي تبصر القلوب والحكمة التى تهدى العقول .

قالت السيدة وقد ثابت الى الجد وكانت اديبة أريبة تحفظ الحديث وتقرأ القرآن هذا حق ، واقرأ ان شئت قول الله عز وجل في سورة النحل : ﴿ والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لاتعلمون وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .





الغانيات

— من اين اقبلت يا ابنتى ! .
— من حيث لاتبلغ الظنون ..
— ماذا تريدين يا ابنتى ؟
— أريد مالا تقدرون ..
— كيف تقولين يا ابنتى ..
— أقول ما لاتصدقون !
— اسرفت فى الرمز يا ابنتى .
— بل مالكم كيف تحكمون !

وينظر الشيخ حوله فلا يرى من يحاوره ، وينكر الشيخ نفسه ولا شكوك تساوره ، فقد رأى شخصها الجميل ، تظله هذه الغصون ، ولم يزل صوتها الضئيل ، يثير فى نفسه الشجون . وكانت الشمس قد تولت ، كالأمل الخائب الكذوب ، وظلمة الليل قد اظلت ، كاليأس اذ يغمر القلوب .

وقد لبث الشيخ مكانه قائما واجما ، يرفع رأسه إلى السماء حينا ، ويخفض راسه إلى الأرض حينا آخر ، ويقلب طرفه فى الفضاء بين ذلك ، يلتمس هذه الفتاة الأنيقة الرشيقة ذات الوجه النضر والقد المعتدل . هذه التى بدت له رائعة بارعة على انها لم تتخذ زينة ولاحليا ، ولم تتخذ من الثياب ما تعودت الفتيات الحسان اتخاذه ، وإنما بدت له ساحرة باهرة ، تحيط بها هالة من الفتنة الفاتنة ، على ما كان يستر جسمها الغض البض من ثوب هو إلى السذاجة القروية أدنى منه إلى تكلف المدن ، وهو إلى البلى أدنى منه إلى الجدة .

فلما رآها انكرها ، ثم دار بينه وبينها هذا الحوار الذى ابتدىء به هذا الحديث والذى لم يفهم منه شيئا ، والذى كان يريد ان يمضى فيه حتى يعلم من الفتاة علمها ويظهر على جلية أمرها ولكنه ينظر

فلا يراها ، ويدعو فلا يسمعها ، ويبحث فلا يجدها فيلبث فى مكانه حائرا مرتاعا ، يكاد يكذب عينه فيما رأت وأذنه فيما سمعت لولا أن صورتها تلح على نفسه فتملاها جمالا وسحرا ، ولولا ان صوتها يلح على قلبه فيشيع فيه طربا حزينا .

وقد طال وقوف الشيخ وطالت حيرته وأخذت الظلمة تغمر الأشياء من حوله ، وكان خليقا ان ينسى نفسه فى موقفه هذا الغريب ، لولا أنه سمع ذلك الصوت الضئيل العذب يقول له : أسرع أيها الشيخ إلى صلاتك فقد أوشكت أن تفوتك وأوشك المؤذن ان يدعو إلى العشاء الثانية . لاتبحث عنى فلن ترانى من ليلتك هذه .

ولم يكد الشيخ يسمع هذا الصوت حتى ثاب إلى نفسه وثابت نفسه إليه ، وذكر انه قطع حديثه مع الباشا فجأة ، وانصرف عنه عجلا ليشهد صلاة المغرب والعشاء مع جماعة الناس كما تعود أن يشهدها فى مسجد القرية الذى يقوم فى طرف من اطرافها غير بعيد من القصر ، وانه ليسعى فى طريقه إلى المسجد وإذا هذه الفتاة تتراءى له من بين هذه الشجرات التى تقوم عند آخر الحديقة وتمد اغصانها متكاتفه مختلطة كأنها تريد أن تتخذ منها للقصر ستارا جميلا صفيقا ، وقد أسرع الشيخ إلى صلاته وهو يحدث نفسه بأنه سيؤديها منفردا وسيؤدى العشاء الثانية مع جماعة الناس ، ولكن الصوت الجميل الضئيل كان يتبعه قائلا له لاتذكرنى لاحد ، ولا تتحدث عنى إلى أحد فإنك ان فعلت لم تجن من ذلك إلا شرا . ولا يستطيع الشيخ ان ينكر أن ظهور هذه الفتاة له واحتجابها عنه وتحدثها إليه وتشييعها له ، كل ذلك قد ملأ قلبه فرقا ، لم يسكت عنه إلا حين دخل المسجد واستقبل القبلة مقيما للصلاة ، ولو أطاع الشيخ نفسه لتحدث إلى أصحابه بعد ان فرغوا من صلاة العشاء الأخرة بما رأى وما سمع ، ولكنه كان كلما هم بذلك أو بشىء منه رد نفسه عنه ردا عنيفا مخافة ان يظن الناس به الظنون من جهة ومخافة هذا النذير الذى القته الفتاة إليه من جهة أخرى .

وقد راح الشيخ إلى أهله حين تقدم الليل ، وكانت نفسه تنازعه أن يتحدث إليهم ببعض مارأى وما سمع ولكنه ردها إلى الحزم وحملها على الصمت ، مخافة أن يظن أهله به الظنون وان يتحقق هذا النذير الذى ألقته إليه الفتاة فاستقبل الليل كارها لهدوئه ، وطلب النوم جاهدا فلم يظفر به إلا بعد انتظار طويل ولم ينعم به بريئا من الأحلام المزعجة والأطياف المروعة ، ولم يعرف الهدوء إلا حين استقبل النهار المشرق واضطرب مع أهل القرية فيما تعود أن يضطرب معهم فيه من شئون الحياة . ولم يزر الباشا من يومه ذاك ، كأنه قدر أن هذه الفتاة ستعرض له بين تلك الشجرات مستظلة بتلك الغصون المتكاثفة فى طرف الحديقة مما يلى القرية . وقد شهد صلاة العشاءين مع أصحابه واستقبل ليلة هادئة ، واستقبل نهارا مشرقا هادئا ، حتى إذا ارتفع الضحى ، سعى إلى القصر يريد أن يزور الباشا فى النهار الواضح المبصر ، لا فى الأصيل الشاحب الذى يسعى إلى الإظلام أو يسعى إليه الإظلام ، والذى تعرض فيه الفتيات الحسان فى ظل الأغصان . ولكنه رأى الباشا مكتئبا مفرق النفس ، كان أمرا ذا بال يهمه ، ويصرفه عن إدارة الحديث مع جلسائه كما تعود أن يدير الأحاديث فى لباقته ورشاقته وذكائه الحاد . وكان الشيخ أثيرا عند الباشا ، محببا إلى نفسه ، مشيرا عليه فيما يعرض له من الأمر ، فلما رأى اكتئابه وابتئاس نفسه ، أطال المقام ولم ينصرف مع الناس حين انصرفوا . وانما استأنى وتريث ، حتى إذا خلا له وجه الباشا سأله مترفقا به عن هذا الأمر العارض الذى أهمه واضطره إلى ما هو فيه من هذا الحزن الكئيب .

قال الباشا وعلى ثغره ابتسامة شاحبة وفى صوته تكسر حزين ما أدرى أأحدثك بهذا الحديث أم أطويه عنك ، فإنى أنكره أشد الانكار ، وأكاد أخفيه على نفسى اشد الإخفاء . وقد هممت أن أسافر إلى القاهرة لأرى الطبيب ، ثم بدالى فدعوت الطبيب إلى زيارتى ، وإلى ان ينفق معى يومه إذا كان الغد ، والأمد بيننا وبين القاهرة غير بعيد ، واليوم يوم الخميس ، فليس على الطبيب بأس أن ينفق معنا يومه غدا .

قال الشيخ : فإني لم افهم عنك ولم اتبين هذه الصلة الغريبة بين ما يظهر عليك من حزن ، وبين دعوتك للطبيب إلى أن ينفق معك ساعات من نهار .

قال الباشا : ألم أقل لك أني أنكر نفسي واخشى ان يكون قد ألم بي بعض العلة . فقد رأيت امس ما روعني ، وسمعت أمس ما أخافني ، واني لاستحيي من نفسي حين أفكر فيما سمعت وما رأيت . واني لاستحيي منك ان احدثك بما سمعت وما رأيت .

قال الشيخ وهو مهتم يتكلف الابتسام ، وصوته مضطرب يتكلف الثبات : ماذا سمعت وماذا رأيت ؟ قال الباشا في صوت يكاد يبين عن الجزع : سمعت صوتا لم أسمع قط أعذب منه .. ورأيت شخصا لم ار قط أجمل منه . ثم انقطع عني الصوت ، واحتجب عني الشخص وترك في نفسي ما ترى من حزن واكتئاب . وقد ذكر الشيخ ماراى ، وذكر ما سمع ، وهم أن يتحدث إلى الباشا بمثل ما تحدث به الباشا إليه ، ولكنه خاف النذير فآثر الصمت . ومضى الباشا في حديثه فقال : كان ذلك حين آذنت الشمس بالغروب وحين أخذت ظلمة الليل تغزو الفضاء ، وقد كنت أسعى في هذه الحديقة فما راعني إلا فتاة بارعة الجمال ، رائعة القوام ، تنظر إلى بطرف نافذ كأنه السهم .. فأسألها من هي ومن أين أقبلت ! وإلى أين تريد وماذا تبتغي ؟ فلا أسمع منها إلا أجوبة غامضة لا افهم منها شيئا ، فهي مقبلة من حيث لا أظن ، وقاصدة إلى حيث لا أقدر ، ومريدة مالا استطيع ، وقائلة مالا أفهم . وأريد أن استوضحها ، وإذا شخصها يستخفي مني ، وإذا صوتها ينأى عني شيئا فشيئا وهو يقول لابد مما ليس منه بد ، خير لك ان تقدم على الأمر طائعا راضيا من أن تقدم عليه كارها مضطرا . وقد سمعت هذه الكلمات الأخيرة يلقيها إلى صوت غريب كأنه الصدى .

ولم يشك الشيخ حين سمع حديث الباشا في أن صاحبته تلك التي عرضت له في طرف من أطراف الحديقة هي التي عرضت لصاحب القصر ، وهي التي تحدثت إليه ، ولكنه على ذلك لم يفض إلى الباشا بذات نفسه وإنما قال له متضاحكا لو علمت أنك تسمع لي لطلبت إليك

أن تفعل كما أفعل ، وأن تقرأ اجزاء من القرآن فى كل يوم تذكر الله بتلاوتها ، فإن ذكر الله يملأ القلوب أمنا واطمئنانا ويرد عن النفوس مايروعها ويؤذيها من الخوف والريب ، وقد احسنت إذ دعوت الطبيب وما أرى إلا أن مقدمه سينفعني فسأستشيره فى بعض ما أجد من الضعف وان كنت لا أنتظر منه خيرا كثيرا ، فإن هذا الضعف الذى أجده لادواء له لأنه ضعف الشيخوخة والهرم .

وتنقل الرجلان في أحاديث كثيرة مختلفة أشد الاختلاف يسلى كل منهما بهذا التنقل نفسه وصاحبه عن هذه الصورة الملحة ، وهذا الصوت المتصل ، وهذا النذير الغامض الغريب . وقد حرص الشيخ على أن ينصرف عن القصر قبل ان يصلى العصر حتى لايرى ذلك الشخص ، ولايسمع ذلك الصوت ولكنه يقبل الى المسجد حين يدعو المؤذن إلى صلاة المغرب ولايكاد يبلغ الباب حتى يرى شخصين غريبين قد قام كل واحد منهما على جانب من جانبيه . وينظر الشيخ فى شيء من الروع إلى أحد هذين الشخصين ، فلا يشك فى أنه يرى الفتاة التى رآها فى طرف من أطراف الحديقة ، وينظر إلى الشخص الآخر فإذا هو صورة مطابقة للشخص الأول كأنما كل واحد من هذين الشخصين تمثال لصاحبه يطابقه أشد المطابقة ويصوره أدق التصوير ، ويرى الشيخ على ثغر كل من هذين الشخصين ابتسامة حازمة صارمة ولكن فيها عذوبة تنفذ إلى قلبه فتملأه أمنا وروحا . وقد رفع الشيخ صوته حين رأى هذين الشخصين بتلاوة ماتيسر من القرآن ، ولكنه يسمع الصوتين يتلوان معه ما كان يتلو ويجد تلك العذوبة التى وجدها حين كانت الفتاةتتحدث إليه وتحاوره فى ظل تلك الغصون ، فيسرع إلى المسجد مخافة الفتنة وينغمس فى جماعة الناس ، وقد أشفق على نفسه من شر عظيم .

ولست فى حاجة إلى أن أصور ماملأ قلب الشيخ من روع وروعة ، ومن خوف وأمن ، ومن يأس ورجاء ، فقد كان يحب أن يرى هذه الصورة ويشفق من رؤيتها ، وقد كان يرجو ان يسمع هذا الصوت ويخاف من سماعه ، وقد جعل يحيا حياة مضطربة بين هذه العواطف

المتناقضة . واقبل الطبيب فسمع من الباشا وتحدث إليه وامتحنه ولكنه لم يغن عنه شيئا . وما كان الطبيب ليغنى عنهما ولا عن غيرهما شيئا ، فما هى إلا ايام حتى كثر هذا الشخص او كثرت صور هذا الشخص فى القرية وجعل كل واحد من اهل القرية يراه حين يغدو إلى عمله مع الفجر وحين يروح إلى أهله مع الاصيل .. وجعل كل واحد من أهل القرية يسمع منه ويتحدث إليه مصبحا وممسيا . ويرتاع لمنظره وصوته أول الأمر ، ثم يالف منظره ويطمئن إلى صوته ، ويشتاق إلى أن يراه بين الفجر والأصيل ، ويشتاق إلى ان يسمعه فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار .

وقد جعل أهل القرية يتحدثون إذا التقوا عن هؤلاء الفتيات الحسان اللاتى يعرضن لهن فى الغلس حين يطلق النهار سهمه المضىء فيشق به ظلمات الليل ، وفى الأصيل حين يطلق الليل سهمه المظلم فيبدد به ضوء النهار . وجعل أهل القرية يتحدثون عن هؤلاء الفتيات الحسان المطمعات المغريات اللاتى يبدون لهم ويدنون منهم ويدعونهم إليهن فى شىء من الفتنة ولكنها فتنة نقية لا اثم فيها ولا حرج ، ولا لوم فيها ولا تثريب .

وجعل أهل القرية يسالون الشيخ عن هذا الحدث الغريب الذى الم بقريتهم منتصحين فغير حياة الناس فيها تغيرا شديدا ، واثار فى قلوبهم آمالا لا حد لها ، ويأسا لا حد له ، وغير راى بعضهم فى بعض ، وغير رأيهم جميعا فى الباشا هذا الذى كانوا يؤمنون له ويذعنون لسلطانه ويرون طاعته عليهم حقا . ويرون انهم ملك له كما ان أرضه ملك له .. ألا انهم يحيون والأرض لاتحيا ويرون انهم ملك له كما ان ماشيته ملك له ، إلا انهم يعقلون وينطقون والماشية لاتعقل ولاتنطق ، تغير رأيهم هذا فى الباشا فاصبحوا يرونه واحدا منهم ، لايمتاز من بينهم بشىء ، فهو رجل من الرجال يذهب ويجىء ويأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ويتكلم بالصواب حينا وبالخطأ أحيانا ، وإذن فلم يستأثر من دونهم بهذا النعيم ! ولم يستطل عليهم بهذا السلطان ، ولم يسعد حتى تبطره السعادة ويشقون هم حتى يضطرهم الشقاء إلى اليأس والقنوط ، ولم

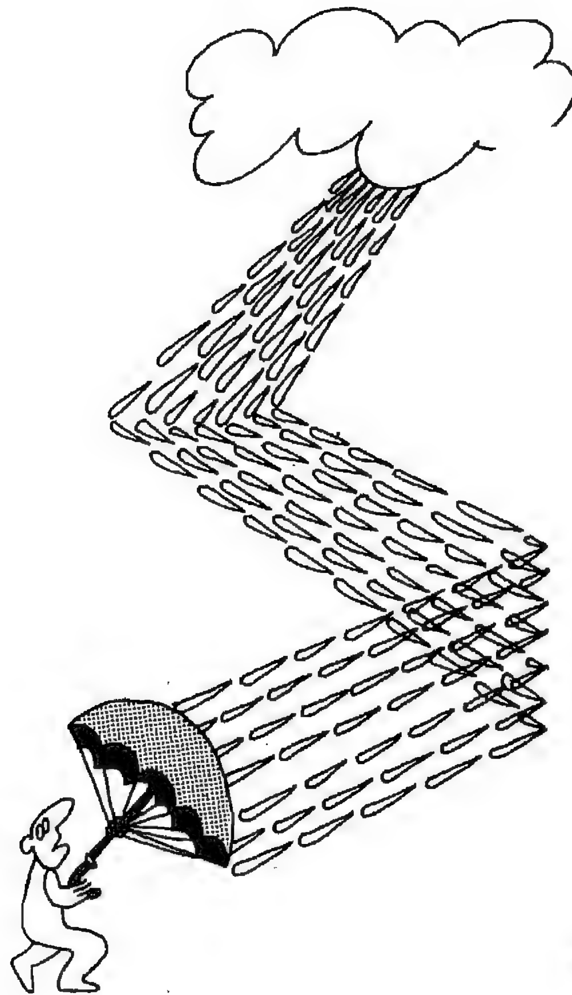
تبسم الحياة له حتى يضيق بهذا الإبتسام ، وتعبس الحياة لهم حتى يهلكهم هذا العبوس ، ولم يكسل هو حتى يضطره الكسل إلى المرض . ويعملون هم حتى يضطرهم العمل إلى الموت .

شاعت هذه الأحاديث بين أهل القرية فامتلأت بها مجالسهم حين يجتمع بعضهم إلى بعض وامتلأت بها بيوتهم حين يخلو كل منهم إلى أهله وذوى قرابته ، وارتقت إلى الباشا فصادفته قلقا قد ملأ قلبه الخوف والاضطراب ، وإذا هو يؤثر أن يترك القرية إلى القاهرة ، ليتحدث عن محنته هذه فى قريته إلى بعض أولى الرأى من أصحابه ولا يكاد يبلغ القاهرة ويفضى بذات نفسه إلى بعض نظرائه حتى يسمع منه حديثا ليس أقل من حديثه خطرا ، ولا أيسر منه شيئا ، فأهل القرى كلهم يتحدث هذا الحديث ، وأهل المصانع كلهم يتحدث هذا الحديث ، والعاملون فى الدواوين والمصارف والشركات ، والعاملون فى الشوارع والطرق والمواصلات كلهم يتحدث هذا الحديث قد اختلط الأمر وعظم الشك ، وشاع فى النفوس أمل لاحد له ، وشاع فى النفوس يأس لاحد له ، وشاع فى الجو كله سحاب لايدرى عما ينجلى ، أعن أمن ورخاء ، أم عن بؤس وشقاء . وكان عدد السكان فى مصر ثمانية عشر من الملايين فأصبح عددهم ستة وثلاثين مليونا ، لأن كل فرد من أفراد هؤلاء المصريين قد وكلت به فتاة حسناء حازمة صارمة باسمة تبعث ابتساماتها فى القلوب أملا مخيفا . وكره الباشا أن يعود إلى قريته لأنه كره فتاته تلك الحسناء فى حديقته تلك الغناء . ولكنه خلا إلى نفسه ذات يوم فى مكتبه المطل على النيل وأراد ان يأخذ فى بعض عمله وإذا هو يحس حركة فإذا التفت رأى فتاته الحسناء وعلى ثغرها ابتسامة ساحرة وهى تقول فى صوتها ذاك الضئيل الجميل لابد مما ليس منه بد أقدم طائعا راضيا ، فذلك خير من أن تقدم كارها مضطرا .

وقد كتب الباشا إلى الشيخ يدعوه إلى القاهرة ليشاوره فى بعض ما يمكن ان يصنع ليرضى الساخط ، ويأمل القانط ، ويأمن الخائف ، ويعمل الكسل ، محبا للعمل لا زاهدا فيه . قال الباشا للشيخ حين خلا إليه : ألا تنبئنى عن هذا البلاء العظيم الذى نمتحن به فى هذه الأيام

الشداد . قال الشيخ مبتسما : لا تسلني أنا عن هذا البلاء وسل عنه فتاة من هؤلاء الفتيات اللاتى ملأن علينا أرض مصر جمالا واملا وخوفا واشفاقا . قال الباشا : ومن عسى ان تكون هؤلاء الفتيات ! قال الشيخ : لا أدرى ولكنى كلما سألت واحدة منهن عن اسمها رفعت كتفيها وابتسمت عن ثغر جميل وقالت ساخرة : تريد ان تعرف اسمى فاسمى هو « العدالة الاجتماعية » ..





البرق الخاطف

أنكريه ياسيدتي ان شئت أو اعرفيه . فكلا الأمرين منك سائغ ، وكلا الأمرين منك مقبول ، وان تنكريه فقد أنكرت نعم شاعرها وشاعر الحجاز عمر بن أبى ربيعة ، وأن تعرفيه فقد عرفت أسماء شاعرها وشاعر الحجاز عمر بن أبى ربيعة ، وأنت ياسيدتي أديبة أريبة تذكرين من غير شك ما تحدث به فتى قريش عن صاحبتيه حيث يقول :

قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه ... أهذا المغيرى الذى كان يذكر
أهذا الذى أطريت نعتا فلم أكن ... وعيشك أنساه إلى يوم أقبر
فقالت نعم لاشك غير لونه ... سرى الليل يحيى نصه والتهجر
لئن كان إياه فقد حال بعدنا ... عن العهد والإنسان قد يتغير
رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت ... فيضحى وأما بالعشى فيخصر
أخا سفر جواب أرض تقاذفت ... به فلوات فهو أشعث أغبر
قليل على ظهر المطية ظله ... سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
وأعجبها من عيشها ظل غرفة ... وريان ملتف الحدائق أخضر

فأى المذهبين تختارين ؟ مذهب نعم هذه التى أنكرت الشاعر وجعلت تسأل عنه فى سحرية تمازجها العطف . أم مذهب أسماء التى عرفته وجعلت تحدث عنه فى عطف يمازجه الاعجاب ؟ وإنى لمسرف حين ألقى عليك هذه الأسئلة وأخيرك بين هذين المذهبين فانى لم أسمع منك منذ ساعة إلا إنكار لصاحبنا هذا المسكين ونعيا عليه ، ترينه كثير الكلام وقد كان كثير الصمت ، وترينه كثير الحركة وقد كان صاحب رزانة ووقار ، وترينه مقصرا فى ذات الصديق وقد كان من أشد الناس وفاء للصديق ، وترينه مستكبرا مستعليا وقد كان متواضعا غاليا فى التواضع وترينه يقول غير الحق وقد كان لا يؤثر على الحق

شيئا ، وترينه مداورا مناورا وقد كان أبغض الناس للمداورة وأزهدهم فى المناورة وأحرصهم على أن يسلك إلى ما يريد طريقا مستقيمة غير منحرفة ، ومستوية غير ملتوية ، وواضحة لا يحتاج سالكها إلى الهدى والاعلام . وترينه حذرا هيابا ومتحفظا محتاطا وقد كان جريئا مقداما ، لا يخاف شيئا ولا يخاف احدا ولا يعدل عن الصراحة الجلية إلى الإشارة الغامضة أو التلميح الذى يلبس فيه الحق بالباطل والصواب بالخطأ والصحيح بالمحال .

وقد كنت تعرفين وجهه مشرقا صافي الإشراق مبتهجا نقي الابتهاج مبتسما حلو الابتسام ، فأصبحت ترين وجهه مظلما تمام الإظلام تغشاه بين حين وحين سحابة رقيقة ضئيلة من إشراق طارىء لايثبت ان تتمحى آيته ويعفى الإظلام على اثاره وأصبحت ترين فى عينيه حزنا ملحا حالكا يصور نفسا مكلومة حزينة كأنما يغمرها ندم متصل لا تكاد تخلص منه إلا لتعود إليه . واصبحت ترين على ثغره ابتسامة تمر سريعة بين حين وحين تحاول أن تثبت فلا تستطيع . كأنما وكل بها من اعماق الضمير حرس يأبون عليها أن تثبت او تستقر . وقد ترين على ثغره ابتسامة تقيم فتطيل الاقامة ولكنها ابتسامة شفافة لا تشف عن نفس مبتهجة او قلب مطمئن أو ضمير راض وإنما تشف عن كآبة وسام وقلق ، هى ابتسامة مجلوبة قد تعلم صاحبنا ان يضعها على ثغره وان ينزعها عنه كما يضع صاحب العمامة أو الطربوش عمامته أو طربوشه على رأسه . متى شاء وينزعهما متى شاء . ترين أشياء كثيرة تنكرينها لانك لم تعهديها من قبل وتلتمسين اشياء كثيرة فلا تجدينها وقد كنت لا ترين غيرها من قبل وأنت من أجل ذلك تنكرين فتسرفين فى الإنكار وتلومين فتغرقين فى اللوم . وليست إلى جانبك اسماء توضح لك الغامض وتجلو لك الخفي وتقص عليك من أمر صاحبنا ما تجهلين ، والإنسان قد يتغير كما يقول عمر بن أبى ربيعة . وما أكثر الأشياء التى تغير الناس فتحولهم عن العهد وتنقلهم من طور إلى طور وتمحو منهم خصالا كان الأصدقاء يعرفونها ويألفونها ويكلفون بها ، وتمحو مكانها خصالا أخرى ليس للأصدقاء بها عهد وليس من شانها أن تحسن فى

نفس الصديق . وقد نبت عين نعم عن عمر لانها :

رأت رجلا جواب أرض تقاذفت   به فلوات فهو أشعث أغبر

قد أكثر السفر وألح فيه يسرى فى الليل ويهجر فى النهار فأدركه ما يدرك أمثاله من الجهد والشعث . وجعلت أسماء تبين ذلك لصاحبتها فى عطف وإعجاب . أما صاحبنا فلم يسر فى الليل ولم يهجر فى النهار ولم يدركه ما يدرك المسافرين من الجهد والشعث ، وإنما أدركه شىء آخر هو الذى تسألين عنه فلا تهتدين إليه . وكيف تعرفينه أو تهتدين إليه وأنت مشغولة بحياته هذه الناعمة فى قصرك هذا الأنيق ، ومن حوله جنته هذه ذات الأشجار الباسقة والأغصان المتكاثفة وذات الزهر النضر والعشب الجميل ومع ذلك فلصاحبنا قصة رائعة شائقة لو عرفتها لرحمته وعطفت عليه ، وله حديث رائع لو سمعته لمنحته شيئا غير قليل من الرثاء والإشفاق وستسألينني من غير شك أن أقص عليك قصته وأنبئك بحديثه . فأنت كغيرك من السيدات تمتازين بهذه الخصال التى تملأ القلوب لكن حبا ومنكن خوفا وبكن إعجابا . فيك رحمة لا حد لها وفيك قسوة لا حد لها . وفيك رغبة فى الاستطلاع لا تعرف لنفسها حدا تنتهى إليه ، ولست أرى بأسا من أن أقص عليك القصص وأنبئك بالحديث . ولكنى أخشى ألا تصدقى ما سألقى إليك من قول .

فقصة صاحبنا غريبة حقا . لو انها قصت على الناس فى الدهر القديم لصدقوها ولاطمأنوا إليها ، لان عقول الناس فى الدهر القديم كانت نقية لم تكدرها الحضارة ، وكانت قوية لم يصفعها العلم . فأما فى هذا العصر الذى نعيش فيه فقد كثرت الأعاجيب التى ترى وتسمع وتحس حتى أصبح الناس لايصدقون الأعاجيب التى تقص عليهم إلا إذا رأوها وسمعوها أو أحسوها . وقد حاولت أن أرى أعجوبة صاحبى بنفسى فلم أفلح ، وقد كررت المحاولة مرة ومرة منذ حدثنى بقصته فلم أبلغ من ذلك شيئا . حاولت ذلك معه وحاولت ذلك منفردا فلم أظفر إلا بالإخفاق ان كان الإخفاق شيئا يمكن أن يظفر به الناس ، وأنا مع ذلك أصدق القصة ولا أنكرها ، لان صاحبى هو الذى قصها على

ولانه لم يعودنى أن يحدثنى بغير الحق ، ولانه قص على قصته أثر خروجه منها وقبل أن تظهر عليه هذه الخصال التى تنكرينها ، ولان عقلى بعد هذا كله مستعد لتصديق مثل هذه القصص لانى عاشرت القدماء حتى أصبحت واحدا منهم . فعقلى نقى لم تكدره الحضارة التى لا آخذ منها كما تعلمين إلا بمقدار ، وعقلى قوى لم يضعفه العلم الذى ليس لى منه كما تعلمين حظ قليل أو كثير .

وكان بدء ما ألم بصاحبى من الخطب انه خرج ذات يوم مع الصبح يلتمس الرياضة ويسلى عن نفسه بعض الهم . فترك المدينة وأمعن فى الصحراء يمضى أمامه هادئا مطمئنا ، مستمتعا بهذا الحر الهادىء الذى تشعه الشمس حين تصحو وتصفو في فصل الشتاء .. ولصاحبى عهد بالأدب القديم فقد جعل يدير فى نفسه بعض ما حفظ من شعر القدماء ذاك الذى يصور الصحراء وما فيها من وهاد ونجاد وما يضطرب فيها من حيوان وما يترقرق فى جوها من سراب . وقد مضى فى رياضته تلك وقتا لا يعرف أطال أم قصر ، لانه نسى نفسه . وامتزج بما حوله ولكنه تنبه فجأة وقد فقد حر الشمس ، وينظر فإذا سحب متكاثفة تأتى من الشمال بطيئة ثقيلة يزحم بعضها بعضا وقد هم أن يرجع ولكنه يرى برقا يخطف ويسمع رعدا يقصف ثم لا يعرف من أمر نفسه شيئا ، وإنما هو شعور غريب غامض أشبه شىء بشعور النائم حين يداعبه حلم لذيذ . فهو يرى كأن هذا البرق الذى كان يخطف قد خطفه هو ، فرفعه فى الجو رفعا سريعا رشيقا حتى انتهى به إلى شىء يشبه أن يكون فراشا موطأ وثيرا . وهو يحس كأن هذا الفراش يسعى به سعيا رقيقا ولكنه سريع يذكره بعض ما كان يجد حين كان النوم يداعبه وهو فى مضجعه من السفينة والجو صفو والبحر هادىء والسفينة تجرى فى يسر تعينها عليه ريح رخاء . ثم يحس كأن سريره ذاك الساعى فى الجو قد استقر على مكان ثابت مطمئن وكأن صورا غريبة تشبه الناس ولا تشبههم قد حفت به فأجلسته وجعلت تتحدث إليه بلغة غريبة يفهم معانيها ولا يحقق ألفاظها ولكنه يؤكد أنها ليست اللغة العربية التى يتكلمها عامة وقته وليست اللغة الفرنسية التى

يتكلمها بين حين وحين . وليست لغة من هذه اللغات التى يسمع الناس يتحدثونها من حوله فيفهمها قليلا أو كثيرا ، وإنما هى لغة غريبة حقا ان أمكن أن تشبه بشىء فقد تشبه بما يأتلف من هفيف النسيم وحفيف الأغصان وخرير الماء وغناء الطير ، وهو مع ذلك يفهم هذه اللغة حق الفهم لا يجد فى ذلك مشقة ولا عناء كانما تبلغ ألفاظها الغريبة قلبه وعقله ، فتستقر فيهما واضحة جلية دون أن تمر بأذنيه ، ودون أن يحتاج لفهمها إلى قليل أو كثير من التفكير . وقد حفظ صاحبى بعض ما استقر فى نفسه من معانى هذه الألفاظ التى كانت تساق إليه أو تلقى فى نفسه إلقاء . فقد ألقى فى نفسه انه قد اختطف من وطنه اختطافا ونقل إلى الوطن السعيد الذى لا يبلغه الناس لانهم لا يجدون سبيلا إليه والذى لا يستطيع الناس أن يحتملوا الحياة الطويلة فيه لانهم أضعف من أن يثبتوا لما فيه من حقائق الأشياء . وأول حقيقة عرضت عليه من حقائق الأشياء هذه فرآها رأى العين ، ولو أراد لتحدث إليها وسمع منها ولكنه لم يحتج إلى ذلك لانها سعت إليه فى خفة ورشاقة فقبلت بين عينيه ، ولم تكد تفرغ من قبلتها حتى ملأت قلبه حبا لها وإيمانا بها واطمئنانا إليها . أقول أول حقيقة من حقائق الأشياء هذه هى النجح . النجح الذى يبلغ الآمال ويقضى الآراب ويرضى الحاجة إلى ارتفاع المنزلة وعلو المكانة ، ويرضى الحاجة إلى بسطة اليد وامتداد السلطان . ويرضى الحاجة إلى الامتياز والتفوق ، وإلى الاستعلاء والتغلب ، والنجح الذى يعيش الناس له ويجدون فى طلبه ويكدون فى التماسه ولكنهم لا يبلغونه إلا ليردوا عنه ، ولا يظفرون به إلا ليصد عنهم لانهم لا يعرفون له حقه ولا يلتمسونه من مظانه ولا يسلكون إليه الطرق التى تمكنهم منه وتسلطهم عليه . النجح الذى يطلبه الناس بما ورثوا من أخلاق وبما ألفوا من عادات وبما حفظوا من تقاليد . يطلبونه من طريق الصدق والوفاء ، ويطلبونه من طريق النصح والإخلاص ، ويطلبونه من طريق العلم والمعرفة ، ويطلبونه من طريق الجهد والمشقة ، ويطلبونه من طريق العمل المتصل والاجتهاد المنهك للقوى المقصر للأعمار ، ويطلبونه من هذه

الطرق فلا يصلون إليه . لانها طرق قديمة قد ذهبت معالمها وأصبح سلوكها حمقا والسعى فيها جورا عن القصد وانحرافا عن الجادة وتكلفا لما لا يفيد .

ولو أنهم سلكوا إليه طرقه الطبيعية التى لاتؤدى إلا إليه والتى لايستطيع سالكها ان يرجع ادراجه ، وانما هو يمضى من فوز الى فوز ومن ظفر إلى ظفر . ولو انهم سلكوا إليه هذه الطرق لبلغوه فى غير جهد ولأخذوا بحظهم منه فى غير عناء وهم صاحبى أن يسأل عن هذه الطرق الطبيعية ولكنه لم يحتج إلى السؤال ، فقد ألقى فى نفسه انها نقائص الطرق المألوفة فهى لاتحب صدقا ولا وفاء ، وهى لا ترضى عن النصح ولا الإخلاص ، وهى لاتستقيم للعلم والمعرفة وهى لا تحتمل الجد والكد وهى لاتطيق العمل والاجتهاد ، وانما هى تحب نقائص هذه الخصال جميعا . وهم صاحبى ان يسأل وكيف التخلص من الأخلاق المألوفة والعادات الموروثة والتقاليد المحفوظة ؟ ولكنه لم يحتج إلى أن يسأل هذا السؤال . فقد ألقى فى نفسه ان شقاء الناس لايأتيهم من أنهم لايقدرون على الاحتفاظ بخصال الخير أو مايسمى خصال الخير . وإنما يأتيهم من انهم لايقدرون على أن يتخلصوا من خصال الخير هذه . وانما هم دائما أشبه بالكرات تتقاذفها الفضائل والرذائل أو مايسمى الفضائل والرذائل . ولو انهم خلصوا للفضائل لسعدوا لأنهم يستريحون إلى اليأس . ولو انهم خلصوا للرذائل لسعدوا لأنهم يبلغون من الحياة الدنيا كل ما يريدون وشك صاحبى غير طويل . ثم هم ان يسأل كيف السبيل إلى أن يخلص الانسان من الفضائل ويبيع نفسه للشيطان ولكنه لم يحتج إلى أن يسأل هذا السؤال فقد قدمت إليه كأس صغيرة جميلة فيها شراب كدر اللون . وقيل له أحس هذه الكأس حسوا فانك ان اتيت على آخرها انسللت من الخير كما تنسل الشعرة من العجين وانحطت عنك أثقاله كما تنحط اثقال النهار عمن يشمله نوم الليل . قال صاحبى وقد شربت هذه الكأس فى مهل فكنت كانما أشرب نارا تحرق جوفى تحريقا ، ولكنى كنت أجد لهذه النار المحرقة ، لذة لا استطيع أن أصورها وروحا لا أدرى كيف أصفه ، فلما فرغت من

شرب الكاس سمعت غناء لم أسمع أجمل منه قط ولم أسمع أبشع منه قط.

ولست أدرى وما أظن أحد يدرى كيف يجتمع الجمال الرائع والقبح المروع فى صوت واحد . ولكننى سمعت هذا الصوت ثم انسيت نفسى ، ثم أفيق وإذا انا فى مكانى ذاك من الصحراء ولكن لا أرى الشمس ولا أحس حرها ولا أرى السحب المتكاثفة تسعى من الشمال بطيئة متثاقلة ، ولا أرى برقا خاطفا ولا اسمع رعدا قاصفا وانما أرى ليلا مظلما قد اطبق على الصحراء أطباقا وأضطربت فيه أشعة ضئيلة تأتى من هذه المصابيح التى زين الله بها السماء الدنيا . وقد عدت إلى المدينة بعد جهد . والحمد لله على أن أهلى لم يكونوا فى المدينة وانما كانوا فى الريف . ولو قد رحت اليهم آخر الليل مجهودا مكدودا أشعث أغبر ، طائر اللب مغرق النفس ، لانكرونى أشد الانكار . ولكان بينهم وبينى حساب عسير لست أدرى كيف أخلص منه .

ثم أطرق صاحبى إطراقة طويلة عميقة رفع رأسه بعدها إلى وهو يقول : « وصدقنى انى انكر نفسى أشد الانكار منذ تلك الرحلة الغريبة . ويخيل إلى انى لا أحيا مع الناس ، وإنما أنا فى حلم متصل ، والغريب انى لم أكد استقبل النهار وأتقدم فيه حتى دعيت إلى شىء أرجو أن يكون وراءه النجح »

وأنت بعد ذلك يا سيدتى تعرفين من أمر صاحبنا مثل ما أعرف قالت السيدة وكانت أديبة أريبة : « فاحذر ان تتعرض لهذا البرق الخاطف فإنى أحب أن أراك دائما كما انت » . قال محدثها : « هيهات ياسيدتى أنا أثقل وزنا من أن تخطفنى البروق » .





حديث القلوب

لا أريد أن أسميه لأني لا أريد أن يعرفه الناس ، وحسبي أنه سيعرف نفسه . ولو استطعت أن أخفيه على نفسه لفعلت فأنا أحبه أشد الحب ، وأوثره أعظم الإيثار ، وأكره أن يأتيه من نحوى أيسر الجهد وأهون العناء واقل الأذى . وأرى أنى لا أتكلف له ذلك ولا أتصنعة وإنما هو حق الصديق على الصديق ودين الخليل عند الخليل . ومالى لا أرى له هذا الحق ولا أعترف له بهذا الدين وقد استقبلنا الصبا رفيقين واستقبلنا الشباب زميلين واستقبلنا الكهولة صدّيقين .. لم تستطع حوادث الأيام على كثرتها واختلافها أن تثير بيننا أيسر الخلاف فضلا عن ان تفرق بيننا فى الآراء والأهواء .

نعم لقد استقبلنا الصبا رفيقين فجلسنا معا على حصير الكتاب ، واختلفنا معا بين يدى سيدنا لايكاد أحدنا يفرغ من تلاوة ماحفظ من القرآن حتى يقوم الآخر مقامه ويتلو مثل ماتلا ثم نلتقى بعد ذلك فى مجلسنا ذاك فى ركن من أركان الكتاب فنتذاكر ماسمعنا من ألفاظ اللوم والتشجيع التى كان يسوقها إلينا سيدنا فى صوت يغلظ حينا حتى كأنه الرعد ويرق حينا حتى كأنه النسيم ، وقلدنا هذه الحركات الطريفة التى كان يأتيها بإحدى يديه ليحدث بها صوتا متلاحقا سريعا يحثنا به على ان نكر التلاوة كرا ليتبين مقدار حفظنا للقرآن حتى إذا صليت العصر تركنا الكتاب غير ضيقين به ولا أسفين على تركه ، وانما نحن نتركه مفكرين فى العودة إليه إذا كان الغد ، ونتركه مبتهجين بانصرافنا عنه إلى هذا اللعب الذى سنستأنفه فى زاوية من زوايا الدار أو فى ناحية ما على شاطىء القناة .

نعم واستقبلنا الشباب زميلين نختلف إلى مجالس العلم فى الأزهر الشريف نجد حين نستعد للدرس وحين نسمعه وحين نجادل كل الاساتذة فيه ، ونلهو حين نفرغ من ذلك وحين نأخذ فى العبث بأساتذتنا وزملائنا وماكنا نرى ونسمع مما كانوا يعملون ويقولون . لا أذكر ولا أراه يذكراننا اختلفنا يوما مافى أمر ذى خطر ، وانما كنا متفقين دائما مؤتلفين دائما لانتكلف اتفاقا ولا ائتلافا ، وانما تجرى أمورنا هينة لينة ، وتمضى الحياة بنا على رسلها رفيقة رقيقة ، حتى لقد كنا نرى مايثور بين الأصدقاء والزملاء من هذا الخلاف العارض الذى يباعد بينهم من حين إلى حين فنتكلف الضيق بحياتنا هذه التى لاتعرف خلافا ولا افتراقا فى الرأى . ثم لانلبث أن نثوب إلى الضحك والابتهاج والرضى بحياتنا هذه الراضية المطمئنة .

وقد فرقت حوادث الأيام بين شخصينا أعواما طوالا أو أقصارا ولكنها لم تستطع ان تفرق بين نفوسنا وضمائرنا ولا أن تخالف بين أهوائنا وارائنا ، وانما لبثنا متفقين على البعد كما كنا متفقين على القرب ، واتصلت بيننا رسائل مازلنا نعود إليها بين حين وحين كلما كلفتنا الأيام من أمرنا شططا ، ثم التقينا بعد الفرقة وتدانينا بعد التنائى واستأنفنا فى حياة الرجال مامضت عليه أمورنا فى حياة الصبية والشباب من هذا الود النقى والاخاء الرضى والتعاون على البر والمعروف .

وليست حياة الناس تخلو مما يؤذى ولا هى تبرأ مما يسوء ، وليست حياة الناس تخلو من هذه الخصومات التى تفسد عليهم أمرهم أحيانا ، وتمنحهم القوة والإيد وحب الجهاد والكفاح أحيانا . وقد عرض لكل واحد منا حظه من هذا كله ولكن الغريب ان شيئا من ذلك لم ينل أحدنا من قبل صاحبه وانما كان هذا ينالنا من قبل قوم آخرين ، فكنا نتعاون على احتمال الشر ودفع المكروه . وكان كل واحد منا يجد عند صاحبه مايجده الصديق عند صديقه من المواساة والعون والتسلية والعزاء .

* * *

ثم مضت الأيام على ما تعودت أن تمضي عليه مستأنية متشابهة حينا ومتعجلة مختلفة حينا آخر ، وجرت فيها الحوادث تباعد بيننا بعض الشيء . ثم لاتزال تلح في المباعدة بيننا حتى جعلنا ننفق الأسابيع والأشهر لانلتقي ، وننفق الأسابيع والأشهر لا يكتب أحدنا إلى صاحبه شيئا ، ولكنا كنا على ذلك نلتقي بين الحين والحين فلا يكاد أحدنا يلقى صاحبه حتى ينشد ضاحكا قول الشاعر القديم :

نلبث حولا كاملا كله لا نلتقي إلا على منهج
في موسم الحج وماذا منى وأهله أن هي لم تحجج

ثم نستأنف حديثنا كأصفى ما يكون الحديث بين الصديقين الصفيين :

وكانت أكثر أحاديثنا لا تكاد تتصل بحاضرنا ولا بحاضر الناس ولا تكاد تتصل بمستقبلنا ولا بمستقبل الناس ، وانما كانت تتصل بهذه الذكرى التي نسجت منها صداقتنا نسجا ، وصورت منها مودتنا تصويرا وكانت هذه الذكرى الحلوة تكاد تشغلنا دائما عن حاضرنا وحاضر الناس ، وعن مستقبلنا ومستقبل الناس . ولكننا نلتقي ذات مساء في هذا القطار الذي ينقل الناس من الاسكندرية الى القاهرة . يأخذ احدنا القطار في الاسكندرية ويأخذه الآخر في سيدي جابر وقد مضى القطار في طريقه ولم يفطن أحد منا لمكان صاحبه ، ثم تكون لفتة منه فيراني فيسرع إلي مستبشرا مبتهجا وهي يقول ماذا ؟ أنت هنا ! والقاه مغتبطا محبورا وأنا أقول : ماذا . أنت هنا ! ثم يجلس كل منا إلى صاحبه وما نكاد نفرغ من التحية التي تعودنا أن نتهاداها حين نلتقي حتى نأخذ في حديث الجو ثم في حديث السفر ثم في حديث القطر التي تحسن الأبطاء أكثر مما تحسن الاسراع ، وتحسن التأخير عن مواعيدها أكثر مما تحسن الوفاء بهذه المواعيد . ثم عن الاسكندرية التي تزدحم بالقاصدين اليها والنازحين عنها ، وتموج بالمقيمين فيها ، ثم عن جو الاسكندرية وجو القاهرة والموازنة بين ما يكون بينهما من اختلاف في الصيف ومن اختلاف في الشتاءومن توافق فيما يكون بين ذلك من الفصول . ثم نأخذ في حديث الصحف

الجادة والهازلة وفى حديث الأدب القديم والأدب الجديد ، وننفق هذه الساعات التى ينفقها المسافرون بين القاهرة والاسكندرية متحدثين عن كل شيء إلا عن انفسنا ملمين بكل شيء إلا بأحداث السياسة . وما كان أكثر ما نلتقي فلا نتحدث إلا عن أنفسنا ، وما كان أكثر ما نتحدث عن أنفسنا فنعبث أثناء الحديث بالسياسة وأصحابها ونتخذ من هذا العبث ألوانا من المتاع الرفيع . أما اليوم فقد ألقى بيننا وبين انفسنا حجاب صفيق وألقى بيننا وبين السياسة والسياسيين ستار كثيف ، وجعلنا نتحدث كما يتحدث الناس حين يلتقون على غير معرفة موثقة أو مودة متينة قد برئت من التكلف والقيت عنها الحجب والاستار ، فهم حراص على ألا يقول بعضهم لبعض ما يؤذى أو يسوء . لماذا تعمدنا أن نجتنب الحديث عن ذات انفسنا ، ولماذا تعمدنا ان نجتنب الحديث حتى عن حاضرنا وحاضر الناس وحتى عن مستقبلنا ومستقبل الناس ، ولماذا انفقنا هذه الساعات الطوال لانتحدث إلا فى هذه الموضوعات التى لا تحطم شيئا كما يقول الفرنسيون ، ولماذا نسى كل واحد منا أن ينشد حين رأى صاحبه قول الشاعر القديم :

نلبث حولا كاملا كله لا نلتقى إلا على منهج
فى موسم الحج وماذا منى وأهله إن هى لم تحجج

سل السياسة عن هذا فهى التى تستطيع أن تخبرك الخبر اليقين ، وسل السياسة عن هذا فهى التى تحسن التفريق بين الأصدقاء والتقريب بين الأعداء ، وهى التى تحسن أن تنسى الناس أنهم كانوا رفاقا فى الصبا وزملاء فى الشباب وأخلاء فى الكهولة . وسل السياسة فهى التى تحسن أن تقيم المنافع العاجلة مقام المودة الباقية ، وان تشغل الناس بساعتهم التى هم فيها عن ماضيهم ذاك الطويل ، وان تشغل الناس بما يقضون من منافع ، وما يرضون من مآرب ، وما يحققون من آمال عما وثقت الأسر بينها من عرى متينة وصلات كان يظن انها أبقى على الزمن الباقى من الزمن .

وهل من الحق اننا لم نتحدث فى هذه الساعات الطوال عن ذات انفسنا ، وهل من الحق أننا لم نذكر فى هذه الساعات الطوال تلك الأيام

الحلوة التى امتلأت بلذات الصبا والشباب . وهل من الحق اننا لم نعبث بالسياسة والسياسيين واننا لم نعبث بانفسنا لا نها اتصلت بالسياسية والسياسيين ؟ وهل من الحق اننا انفقنا هذه الساعات الطوال فى هذه الأحاديث التى كنا نكره ان نخوض فيها والتى يستعين الناس بها على ان يحتمل بعضهم بعضا ، وهل من الحق أن هذه الأحاديث التى انفقنا فيها الساعات الطوال لم تعن أحدنا على أن يحتمل صاحبه ، فكنا نستنجد بالسجائر التى نكثر من تحريقها ، وكنا نستنجد بما عند صاحب البولمان من القهوة والليمون والبرتقال . وكنا نستنجد بتكلف الفكاهة واختراع الدعابة نجذبها من شعورها جذبا كما يقول الفرنسيون . وهل من الحق أن أحدنا لو عرف انه سيلقى صاحبه فى القطار لقدم سفره أو أخره حتى لايكون هذا اللقاء وحتى لا يكون الاضطرار إلى هذه الأحاديث الفارغة التى لاتغنى عن أصحابها شيئا إلا انها تعينهم على قطع الوقت وتمكنهم من أن يحتمل بعضهم بعضا .

نعم كل هذا حق ، ولكن هناك حقا آخر لم أشك فيه ولم يشك فيه صاحبى لحظة . وهو أن ألسنتنا كانت تهذى بما لايغنى وان آذاننا كانت تتجرع هذا الهذيان ، وان قلوبنا فى أثناء ذلك كانت تتحدث بما لم تكن تتحدث به ألسنتنا ، وأن نفوسنا فى أثناء ذلك كانت تستمتع بما لم تكن تستمتع به آذاننا . فقد كان كل واحد منا يكذب على صاحبه أشنع الكذب بما يلقى إليه من هذا الكلام الذى لاطائل فيه والذى لايدل على شىء . وكان كل واحد منا يصدق صاحبه اعذب الصدق بهذا الحديث الذى لم تكن تجرى به الألسنة ولم تكن تتلقاه الآذان ، وانما كانت تخفق به القلوب ، وتستمتع به النفوس ، وتجد فيه العقول راحة وروحا وتجد فيه الضمائر رضى وامنا .

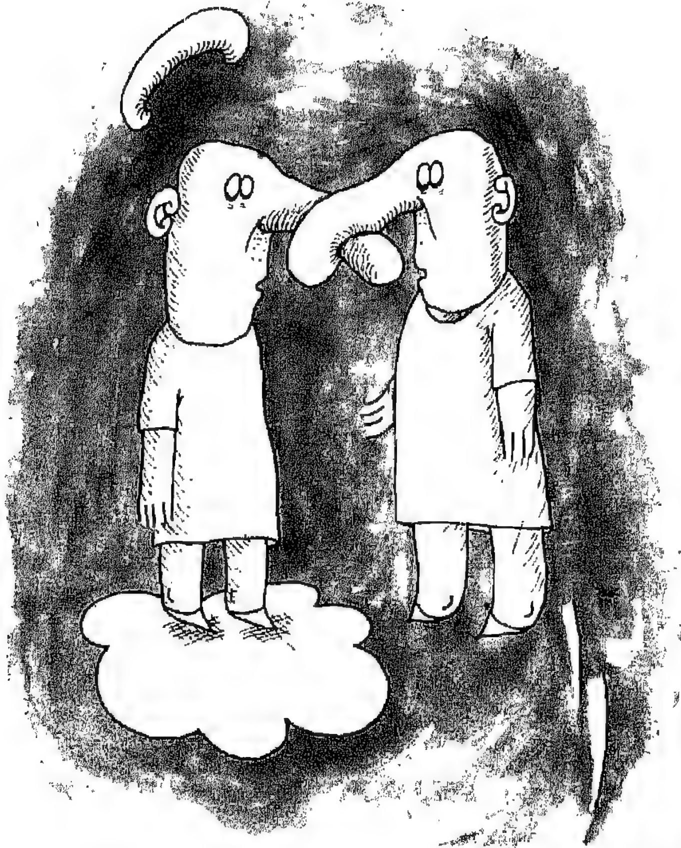
اما أنا فقد كنت أرانى وما أشك فى أن صاحبى قد كان يرى نفسه معى فى ذلك المكان الضيق أمام تلك الدار الصغيرة على شاطىء القناة ، وقد أظلتنا شجرات بسطت أغصانها إلى ماء القناة من ناحية أخرى ، وقامت عليها الطير تملأ الجو بغنائها المتصل الرفيع وخفق أجنحتها المتقطع . ونحن نأخذ فيما تعودنا أن نأخذ فيه من حديث وقد

رفعنا أصواتنا ليسمع كل منا صاحبه ، فقد كان غناء الطير ، وحفيف الورق ، وهفيف النسيم ، وتصايح الصبية من حولنا ، وتنادى الرجال والنساء هنا وهناك ، كان هذا كله يوشك أن يحول بيننا وبين الحديث .

نعم كنت أرانى مع صاحبى فى هذا المكان وكنت أسمع قلبى يلقى إلى قلب صاحبى حديث المودة والأخاء صفوا عفوا وعذبا نقيا . وكنت أتلقى من قلب صاحبى مثل ما كنت ألقى إليه ، على حين كانت ألسنتنا تهذى بسخيف القول لأن ظروف الحياة قد أخذت تعلم الناس أن يخفوا المودة ويظهروا النفاق ، وان يسروا الحب ويعلنوا البغض ، وأن يكذب بعضهم على بعض حتى فى ذات انفسهم ، وأن يخيل بعضهم إلى بعض أن الأسباب بينهم مقطعة وأن الأسباب بينهم لموصولة . ولكن مهلا . أن أخفاء المودة يوشك أن يمحوها ، وأن أسرار الأخاء يوشك ان يقتله وان التصريح بالكذب والنفاق ، واعلان التباعد والخصومة يوشك ان يجعل الكذب والنفاق والتباعد والخصومة اصولا لما نستانف من حياة .

وقد وصل القطار إلى القاهرة ونهضنا يريد كل منا ان يروح إلى أهله ولم يقل أحد منا لصاحبه شيئا بلسانه لأن لسانه لم يكن يقول إلا كذبا ، وقال كل واحد منا لصاحبه كل شىء بقلبه لأن قلبه لم يكن يقول عنه إلا صدقا ، وراح كل واحد منا إلى داره وان قلبه ليتقطع حسرات لأنه لايستطيع أن يبين عما فيه من حب دفين . أبلغ الأمر بنا أن نخافت بالمودة ونجهر بالنفاق ؟





أضغاث أحلام

راى فيما يرى النائم كأنه يسعى متروضا على شط دجلة حين اخذ الأصيل يحسر عن الأرض والسماء فى أناة وريث ضوءه الشاحب الحزين . وكان يسعى فى جنة فسيحة بعيدة الأرجاء ، رائعة الحسن ، قد اختلفت مناظر مافيها من شجر وثمر وزهر وعشب . فهو يتنقل بين هذا كله مستأنيا متمهلا يقف عند هذا اللون من الوان الزينة التى أتخذتها هذه الجنة فيطيل الوقوف ، وينظر إليه فيطيل النظر . ولا ينتقل عنه الا حين يستيقن أنه قد رسمه فى قلبه رسما صادقا . وصوره فى ضميره تصويرا دقيقا . وكأنه كان يحس إحساسا خفيا لايكاد يعلمه أنه حالم لا عالم . فكان يريد أن يستبقى فى نفسه هذا الحسن البارع الذى يراه فى هذا الجمال الرائع الذى يتمتع به ، لينعم بهما إذا ردته اليقظة إلى هذه الحياة البغيضة التى كان يضيق بها أشد الضيق ، لأنها كانت تصور له آمالا عراضا ، وتقعد به عن بلوغ هذه الآمال . فكان يجد الألم الممض والعناء الثقيل فى هذا الرجاءِ الذى ينفسح له وهذا اليأس الذى يقعد به . وكان ألمه يزداد شدة وحزنه يزداد لذعة حين يرى مواكب هؤلاء الأمراء والوزراء والكتاب واصحاب المكانة فى قصر الأمين والمأمون ، فتنازعه نفسه إلى ان يكون واحدا منهم يشاركهم فيما يستأثرون به من الغنى والسلطان والجاه . ولكنه ينظر فإذا الأسباب بينه وبين ذلك مقطوعة لاتريد ان تتصل . ومن اين لفتى من أوساط الناس وعامة أصحاب التجارة فيهم ان يرقى إلى الكتابة أو الوزارة أو قيادة الجند .

فكانت حياته منغصة بهذا الأمل البعيد واليأس القريب . فلا غرابة حين رأى ما رأى فى أحلام الليل ، أن يحرص على من يستبقى هذه المناظر الجميلة ، وهذه المحاسن الفاتنة ، ليتسلى بها إذا استيقظ عن يأس لايريم وأمل لاينال .

وأنه ليتنقل فى حلمه بين هذه المناظر الخلابة الساحرة ، إذا هو يرى جارية حسناء ، فاتنة الحسن تتنقل مثله بطيئة متمهلة فى هذه الجنة الرائعة . ولا يكاد يرى هذه الفتاةحتى تقع من قلبه موقع الحب فتملأه حتى كأنه لايستطيع أن يشتمل غيرها شيئا آخر . ثم يحاول أن يدنو منها ليتحدث إليها ، ولكنها تنأى عنه مسرعة وهى تقول فى صوت عذب ، ولفظ حلو : هيهات هيهات ، لم يؤذن لنا بعد فى أن نلتقى . ثم ينظر فإذا هى قد غيبت عنه ، وإذا قلبه قد خلا منها ولم يستبق إلا صورة ضئيلة جدا ان امتازت بشىء فإنما تمتاز بالفتنة المغرية والقسوة المؤنسة ويمضى فى طريقه هادئا ينحدر نحو النهر فى بطء فلا يكاد يخطو خطوات حتى يرى جارية أخرى ليست أقل من صاحبته الأولى رواء ولا بهاء ولكنها أكثر منها زينة ، وأحسن منها شارة ، وإذا هى تلقى إليه نظرة تضرم فى قلبه نارا أى نار ، فيرنو إليها من بعيد ، ويريد أن يدنو منها لينظر إليها من قريب ولكنها تنأى عنه مسرعة وهى تقول : هيهات هيهات لم يؤذن لنا بعد فى أن نلتقى . ثم تغيب عنه كما غيبت عنه صاحبته الأولى ولكنها قد تركت فى قلبه صورة ضئيلة جدا ، واضحة جدا ، يرى فيها سحر الجمال وآية النعمة والثراء ، ويمضى فى طريقه منحدرا إلى النهر وإذا جارية ثالثة ليست أقل من صاحبتيها فتونا واغراء ولكن فيها استعلاء وتكبرا وشيئا من غلظة لو كان فى رجل لبغضه الناس . ولكنه يدعو إليها أشد الدعاء ، ويرغب فيها أعظم الترغيب . ولا يكاد يراها حتى يجن بها جنونه . وإذا هو يحاول أن يدنو منها ليجثو بين يديها ، وليرفع إليها الطاعة والعبادة ، كما تقدم الطاعة والعبادة إلى الأصنام : ولكنها تنأى عنه مسرعة ، وتأبى حتى أن تقول له مثل ما قالت صاحبتها من قبل . إنما تشير إليه إشارة فيها كثير من الكبرياء أن قف ، فلم يؤذن لنا بعد فى أن نلتقى .

وقد أخذ الفتى ينكر هذا الحلم العجيب وهو مغرق فيه لم يفق منه ، وكاد انكاره لهذا الحلم أن يرده إلى اليقظة ، لولا أن صورة تتراءى له فيثوب إليها ، وإذا جارية رابعة ليست أقل من صاحباتها دعاء للقلب ، واستهواء للنفس لولا انها لاتنظر إلا شذرا ، ولولا أن كل مايظهر على وجهها من هذه الآيات التى تصور دخيلة النفس ، وأعماق الضمير ، لا يدل إلا على الغلظة والغطرسة وسوء الخلق ، وهى مع ذلك تفتن كل الفتون وتملأ قلبه هياما وشوقا وهو يريد أين يستعطفها . ولكنها عنه مسرعة وهى تشير فى اباء وجفاء ، ان قف فلم يؤذن لنا بعد فى أن نلتقى .

وقد أحس الفتى حسرة مؤذية ولوعة حرقت قلبه تحريقا وجعل يتحدث إلى نفسه فى هذا الحلم الغريب لانه شقى بائس قد كتب عليه الحرمان فى حياته اليقظة وفى حياته النائمة . ومن يدرى لعل الحرمان أن يكون قد كتب عليه فى حياته الدنيا وفى حياته الآخرة . وإذن ففيم خلق ؟ ولم قذفت به الأقدار فى هذا العالم البغيض الذى لا تحلو فيه يقظة ولا نوم . ولكنه يرى امرأة نصفا ليست بالجميلة الرائعة ، ولا الذميمة التى تنصرف عنها الأبصار . ولكنها شيء بين ذلك . فى وجهها الحازم ما يدعو إلى الحب وفيه مايحمل على الإكبار وفيه إشراق غريب يشيع فى القلب رقة وفى النفس عطفا وميلا إلى الحنان . وهذه المرأة قائمة مكانها لا تتحول عنه ولاتظهر ميلا إلى التحول عنه وقد أخذ الفتى يدنو منها شيئا ، فلم تنفر منه ولم تغب عنه ، وانما أقامت مكانها هادئة يفيض من وجهها هذا البشر الحازم ، وهذا الحنان الذى يملأ القلب طمأنينة ورضى ، وهى تشير إلى الفتى فى ظرف وعطف ان اقبل ، كأنها شهدت ما لقى من أولئك الجوارى الأربع فرقت له ، واشفقت عليه ، واحبت أن تسليه وتواسيه . ولكن الفتى يعرض عنها اعراضا ، ويصد عنها صدودا ، ويوليها ظهره وهو يقول : هيهات لن يكون بيننا لقاء ، فلست أحب العطف ولا أريد الرفق ، وليس أبغض إلى من هذا الأمل الذى لا أجد فى تحقيقه الجهد المجهد ، ولا فى الظفر به العناء الثقيل .

وكأن أعراضه هذا قد ملأ قلبه غيظا فرده إلى اليقظة على أبغض ماكان يجب أن يستيقظ عليه من الحال . على هذا الأمل القريب الذى لارغبة له فيه ، ولا حاجة به إليه ، بعد ان افلتت منه هذه الآمال العسيرة التى كان عليها حريصا وبها كلفا ، وقد أنفق نهاره مفكرا فى هذا الحلم الغريب ، مستحضرا هذه الصور الجميلة التى تراءت له ثم نأت عنه ، منكرا حظه من النوم واليقظة جميعا .

ويقبل أبوه مع المساء فإذا رآه فى هذا الذهول ، لامه أشد اللوم وعنفه وأنبه أعظم التأنيب ، وحثه على أن يترك حياة الأدب هذه ، التى ترقى بأصحابها إلى السحاب ، ثم لاتبلغهم من آمالهم شيئا . ورغبة فى أن يسير سيرة أسرته فيعمل فى التجارة المريحة التى لاتضيع على صاحبها وقتا ولا جهدا ولا تفكيرا .

ولكن الفتى يمتنع عن أبيه أشد الامتناع ويظهر له الزهد فى التجارة وازدراء لحياة التجار ، ثم ينفق ليلة ساهرة لايذوق فيها النوم ، ولا يصاحب فيها إلا القلم والقرطاس ، حتى أشرقت الأرض بنور ربها ، وفرغت بغداد من مواكب الأمراء والوزراء ، والكتاب الذين استقروا فى دواوينهم حين ارتفع الضحى . أقبل الفتى يسعى إلى ديوان الحسن ابن سهل الوزير . فما زال يتلطف حتى أدخل عليه ، فأنشده مدحة أعجبته ، وانصرف عنه بجائزة أرضته ، وراح على أبيه آخر النهار بعشرة آلاف درهم نثرها بين يديه . قال الشيخ مبهورا مسحورا : لا ألومك بعد اليوم ، فى ازدراء التجارة والإقبال على حياة الأدباء .

ومنذ ذلك اليوم اتصلت أسباب الفتى محمد بن عبد الملك الزيات بأسباب الوزراء والكتاب ، وما زال يرقى من درجة إلى درجة ، ويسمو من منزلة إلى منزلة ، حتى نظر ذات يوم ، فإذا هو قد فوض الخليفة إليه أمور الدولة كلها . فله الأمر والنهى وإليه المنح والمنع ، وفى يده سلطان السيف والقلم جميعا ، وإذا ثروته لاتحصى ولا يقاس إليها إلا ثروة أمير المؤمنين ، ومن يدرى لعله ان يكون أقدر على ابتذال المال والتصرف فيه من أمير المؤمنين . فهو يأمر وينهى فى المال غير

مراجع ولا مدافع . وأمير المؤمنين لايعطى ولا يمنع إلا عن رأيه ومشورته .

وقد فرغ من غدائه ذات يوم وأوى إلى مضجعه يلتمس شيئا من راحة ، فيغفى اغفاءة قصيرة ، وإذا هو يرى نفسه فى تلك الجنة الفسيحة ذات الأرجاء البعيدة . وجارية حسناء ترمقه من بعيد وهو يدنو منها ، محبا لها ، معجبا بها ، حتى إذا استطاع أن ينظر فى وجهها من قريب ، لم ينكر هذه الصورة ، وإنما ذكر كأن عهده بها كان قريبا ! فهى إذن تلك الفتاة الحسناء التى رآها فى حلمه ذاك ، والتى كانت تظهر عليها آيات الغنى والسعة . وهى تبسم له وتدنو منه ، وتقول له فى صوتها العذب ولفظها الحلو : إدن أبا جعفر فقد اذن لنا الآن أن نلتقى . قال أبو جعفر جعلت فداك من تكونين . قالت فى صوتها العذب ولفظها الحلو : انا الثروة .

وأفاق أبو جعفر باسم الثغر ، راضى النفس ، يعجب من حلمه القديم ، وحلمه الجديد . ولكنه كان صاحب جد وحزم وفلسفة فلم يلبث أن هز رأسه وتلا قول الله عز وجل : قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ومضى أبو جعفر يصرف امور الدولة كما يهوى ، وعلى ما يحب أمير المؤمنين ، لايسأل عن العدل أين هو ! ولا يسأل عن الظلم أين هو ! وإنما يسأل عن رضى نفسه ورضى أمير المؤمنين . يسلك اليهما الطرق المستقيمة والمعوجة ويركب إليهما الحزن والسهل ويضحى فى سبيلهما بالماضى والمستقبل فيجفو الصديق ويلقاهم بالغلظة حينا والإزدراء حينا آخر لايعرف لهم ودا ولا يرعى لهم عهدا حتى يقول له صديقه القديم ابراهيم ابن العباس الصولى .

وكنت أذم اليك الزمان فأصبحت منك أذم الزمانا
وكنت أعدك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانا

ثم يغلو فى الاستعلاء ، ويمعن فى الكبرياء حتى يلقى أخا أمير المؤمنين أشنع لقاء . ويتعمد إيذاءه فى نفسه وجسمه بمحضر من أهل الديوان لأن أمير المؤمنين كان مغاضبا لأخيه .

وفى مساء ذلك اليوم خلا إلى ندمائه فأخذ من لهوه المادى ، والعقلى بحظ عظيم ، وثقل عليه الشراب حين تقدم الليل ، فأغفى إغفاءة قصيرة ثم أفاق ، وهويتلو قول الله عز وجل : « قالوا أضغاث احلام وما نحن بتاويل الأحلام بعالمين » فلما سأله بعض ندمائه عن ذلك قال : رؤيا رأيتها فى هذه الإغفاءة وما أرى إلا أنها من أثر الشراب . .

ولم تكن الرؤيا من أثر الشراب ، وانما كان حلما يعبر حلما ، فقد رأى نفسه فى جنته تلك ، ورأى تلك الجارية الأبية المتغطرسة تبسم له وتسعى إليه ، وهى تقول · أدن أبا جعفر فقد أذن لنا الآن فى أن نصطحب . ألا تذكرنى ؟ لقد التقينا ذات مساء فى جنتنا هذه على شاطىء نهرنا هذا ، وقد كنت تريد ان تستعطفنى . قال أبو جعفر . نفسى فداؤك من تكونين ؟ قالت : أنا الجفوة قد أجبتك منذ اليوم فأنا صفاء لك وجفاء لأعدائك . وما أرى إلا أن الناس جميعا عدو لك .

ومضى أبو جعفر يستزيد من السلطان ويستزيد من الثراء ويستزيد من الكبرياء والبأس حتى بلغ من العنف ما لم يبلغه وزير قبله . وسام المسلمين من الوان العذاب ما لم يكن المسلمون يظنون ان من الممكن أن يساق اليهم . واتخذ تنوره ذاك الذى كان يستصفى به الأموال من العمال ، وكان ضيقا شديد الضيق قد أحيطت انحاؤه كلها بالمسامير ذات الحدود المرهفة ، يدخل فيها الرجل من الناس فتأخذ المسامير جسمه من جميع اقطاره وقد جرب أداته تلك فى أحد العمال ذات يوم وجعل ينظر إلى هذا العذاب ويجد فيه متاعا وراحة ورضى . فلما ذكرت له الرحمة قال : انما الرحمة خور فى الطبيعة وضعف فى المنة وما رحمت شيئا قط .

وفى مساء هذا اليوم رأى فيما يرى النائم إحدى جواريه أولئك فى جنته تلك ، تسعى إليه باسمة ابتساما مرا وهى تقول أقبل أبا جعفر الا تعرفنى ؟ أنا صديقتك القسوة لقد التقينا ذات اصيل فى جنتنا هذه على شط نهرنا هذا . فقد آن لنا الآن ان نلتقى ولن يفرق بيننا إلا الموت .

وأصبح أبو جعفر ضيقا بهذه الأحلام التى يعبر بعضها بعضا وحدث نفسه بان يسأل فى ذلك بعض أصحاب الفلسفة لعلهم يجدون لهذا النحو من حياة الناس تفسيرا . ولكنه استكبر حتى عن السؤال وخشى أن تحدث إلى الكندى الفيلسوف فى ذلك أن يزدريه ، ويستخف حلمه ، ويتندر بقصته عند أمير المؤمنين . فلم يتحدث بشىء من أمره إلى أحد . وإنما تلا قول الله عزل وجل : « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتاويل الأحلام بعالمين » .

ومضى ابو جعفر يصرف أمور الدولة كما يشتهى هو لا كما تشتهى أمور الدولة ، حتى ملأ الأرض رعبا ورهبا ، وحتى كان الخوف قوام الصلة بينه وبين القريب والبعيد .

وقد توفى أمير المؤمنين وانتقلت الخلافة إلى أخيه ولكن أبا جعفر مطمئن القلب رضى البال . قد امتلأت نفسه ثقة بنفسه ، وأمن المكروه كل المكروه . فهو مستيقن أن قصور الخلفاء لم تعرف قط وزيرا يشبهه قوة وإيذاء وحسن تصريف للأمور ، فلن يستغنى عنه أمير المؤمنين . ولكنه يصبح ذات يوم وقد وجد الشك اليسير الخفى إلى قلبه العنيف الأبى سبيلا . لأنه رأى فيما يرى النائم جارية من جواريه تلك تبسم له ابتسامة حزينة ، وتنأى عنه رويدا رويدا . وهى تقول فى صوت تكاد تخنقه العبرات : وداعا أبا جعفر ، لقد حمدت صحبتى لك ، ومعاشرتى اياك ، ولكن قضى علينا أن نفترق . قال أبو جعفر : ويحك من تكونين ؟ قالت أنا صديقتك السطوة ، أتنسى يوم التقينا فى جنتنا هذه على شط نهرنا هذا . وقد أفاق أبو جعفر فى ذلك اليوم مضطرب النفس بعض الشىء ، وهم أن يتلو الآية الكريمة فلم ينطلق بها لسانه وانما الح الشك على نفسه إلحاحا .

ولم يأت اصيل ذلك اليوم حتى كان أبو جعفر فى سجن أمير المؤمنين المتوكل . قد جرد من سطوته وجفوته ، ثروته وقسوته . ورد إلى حال الشقى البائس الذى لا يملك لنفسه نفعا ولاضرا . والذى يدعو فلا يستجاب له ويتمنى فلا يحفل أحد بتمنيه . ويشكو فلا يرق أحد لشكاته .

وقد صبر أبو جعفر على السجن ما كن السجن سهلا يسيرا ، ولكنه لم يلبث أن استحال إلى العذاب يصب عليه فى الليل وقد وكل السلطان به من يسامره . حتى إذا أحس منه راحة أو شيئا يشبه الراحة نخسه بالمسلات ليرده إلى الآلم وليجدد عهده بطعم العذاب . وقد صبر أبو جعفر على هذا العذاب ما واتته قوته ، واحتملت طبيعته شدة البأس ، ولكنه يرى ذات يوم على باب الحجرة التى يعذب فيها من حجرات السجن صورة يعرفها ولا ينكرها ، يراها يقظان وقد كان يرى صاحباتها نائما . وهو ينظر فى وجهها نظرة المشوق إليها المفتون بها ، وكلما زاد اليها نظرا ، ازداد إليها شوقا وبها كلفا . وهو يدعو بقلبه كله ونفسه كلها ، وهى تريد أن تستجيب له وتود لو تخطو هذه الخطوات القليلة التى تدنيها منه وتقربها إليه ، ولكنها ترد عن ذلك ردا رقيقا فترسل إلى أبى جعفر نظرات حلوة فيها حنان وعطف وإشفاق . وإذا لسان أبى جعفر ينطلق بهذه الكلمة فى صوت هادىء يقطعه الألم ، الرحمة . قال الذين يعذبونه وقد ظنوا انه يسترحمهم انما الرحمة خور فى الطبيعة ، وضعف فى المنة ، وهل رحمت شيئا قط ؟ ولم يطلب أبو جعفر إليهم رحمة وانما عرف صاحبته تلك التى رآها فى جنته تلك على شاطىء دجلة فسماها باسمها .

ومنذ ذلك اليوم لم ينطق أبو جعفر إلا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حتى حين أدخل فى التنور الذى كان يعذب . به الناس لم ينطق لسانه بغير هذه الكلمة حتى مات .





ضمير حائر

آوى إلى سريره راضيا ناعم البال ، وهب من سريره موفورا طيب النفس ، ونام بين ذلك نوما هادئا هانئا لم تنغصه مروعات الأحلام . ولم يكد يخرج من غرفته حتى تلقاه الصبية من بنيه وبناته بوجوه مشرقة تتألق فيها نضرة النعيم ، وثغور جميلة تبسم عن مثل اللؤلؤ المنضود ، وحملت إليه أصواتهم الرصة العذبة تحية الصباح فردها عليهم فى صوت حلو يجرى فيه الحزم الصارم ويشيع فيه الحنان الرقيق ، وانفق معهم ساعة حلوة يداعب هذه ويلاعب ذاك ، ثم خلص منهم بعد جهد وفرغ لنفسه ليصلح من شأنه قبل ان يغدو إلى عمله ، وكان عمله خطيرا ، وكان اهتمامه لهذا العمل وعنايته بها أعظم منه خطرا ، لأنه كان قوى الضمير حريصا أشد الحرص على أداء الواجب كاملا ، وان أبغض شىء إليه أن يتهمه أحد أو أن يتهم هو نفسه بأيسر التقصير .

ولم تكن عنايته بحسن زيه وجمال شكله أقل من عنايته بالعمل والواجب ، فقد استقر فى نفسه منذ بلغ الشباب أن من كمال المروءة أن يكون الرجل حسن المنظر جميل الطلعة ماوسعه ذلك ، وأن تقع عليه العين فلا تقتحمه وتبلغه الأبصار فلا تزور عنه ولا تعدوه إلى سواه ، ذلك أدنى أن يحببه إلى النفوس ويحسن مكانه فى القلوب ، ويجعل محضره خفيفا و عشرته شيئا يطلب ويرغب فيه .

وكان الله قد منح صاحبنا حظا من جمال الخلقة وخلقه فى تقويم حسن فزاده ذلك عناية بنفسه واهتماما بمنظره وشجعه الناس على ذلك بما كانوا يهدون إليه من ثناء ، وشجعه النساء خاصة على ذلك بما كن يحمدن من صورته الرائعة وزيه الأنيق وحسن تلطفه فى اللقاء والعشرة والحديث ، كل ذلك فرض عليه العناية بجسمه وزيه وشارته اكثر مما تعود الناس ان يصنعوا فكان يخلو فى غرفته كل صباح ، وكان يخلو فى غرفته كل مساء وقتا غير قصير ، ثم يخرج من غرفته ليغدو إلى عمله أو ليروح إلى ناديه ، فلا يكاد أهله يرونه حتى يحدث منظره الرائع فئ نفوسهم فجاءة جديدة على كثرة معاشرتهم له ومخالطتهم إياه .

وقد خلا فى ذلك الصباح إلى نفسه فى غرفته فاطال الخلوة وغير وبدل من زيه ما استطاع التغيير والتبديل ، حتى إذا أعد نفسه للناس أو اعتقد انه أعد نفسه للناس ، وهم أن يخرج ألقى إلى المرآة هذه النظرة السريعة الخاطفة ، التى كان يلقيها إليها دائما كأنما يسألها رأيها الأخير قبل ان يخرج للقاء الناس . وكان رأيها الأخير دائما حسنا مقنعا يشيع فى تفسه شيئا من الرضى الهادىء والثقة المنتظرة . ولكن رأى المرآة الأخير فى ذلك الصباح لم يكن حسنا ولا مقنعا ولا مشبعا للرضى والثقة وانما كان مزعجا مروعا . فلم تكد عينه تبلغ المرآة حتى ارتدت عنها مذعورة ثم عادت إليها مشفقة ، وارتدت عنها وقد نقلت إلى قلبه ذعرا يبلغ الهلع وإذا هو يرتد عن مكانه ويرجع إدراجه مسرعا ويحول وجهه عن المرآة تحويلا تاما حتى لاتخطىء عينه فتمتد إليها مرّة أخرى . وقد أخذ قلبه يخفق خفقانا شديدا سريعا متصلا ، وأخذت جبهته تنضح بشىء من عرق بارد ، وأخذت قطرات من هذا العرق تنطبع على وجهه وجعل الدوار يعبث به وبكل شىء من حوله حتى خيل إليه أن الغرفة كلها قد استدارت فأصبحت المرآة وراءه وأصبحت هذه المائدة التى كان يجلس إليها ليصلح من شأنه أمامه . وإذا هو مضطر إلى ان يتمسك ويتمالك ، وإذا هو عاجز عن ذلك فيجلس على أول كرسى يبلغه مضطربا ممعنا فى الإضطراب حائرا لا يكاد يتبين

حيرته ولا يكاد يتبين مصدرها . ومع ذلك فقد كان مصدر هذه الحيرة يسيرا جدا غريبا جدا في وقت واحد . كان يسيرا لأنه لم يكن إلا ماراى في المرآة وكان غريبا لأنه لم ير في المرآة وجهه وانما رأى اقبح وجه يمكن ان يكون الله قد خلقه ، وابشع منظر يمكن ان يمتحن الله به الناس أو القرود . وقد طال جلوسه على كرسيه وأطراقه إلى الأرض وإغراقه في " حيرة ، ثم أخذ جسمه يهدأ شيئا فشيئا وجعل قلبه يستقر في صدره قليلا قليلا وامتدت يده فاترة إلى منديل امره على وجهه فجفف به العرق ، وارتسمت على ثغره ابتسامة هادئة فيها شيء من غموض وشيء من رضى ، فقد ثابت نفسه إليه وجعل يسخر من هذا الروع الذى ألم به فأكبر الظن أن شيئا من علة قد ألم بمعدته فأفسد عليه مزاجه شيئا ما ، ثم أنشأ يسأل نفسه عما طعم أمس وعما شرب فلم ينكر من طعامه ولا من شرابه شيئا فقد طعم أمس وشرب كما كان يطعم ويشرب في كل يوم ، ولكن بمعدته شيئا من غير شك ، هو الذى خيل إليه ماخيل حين مد عينه إلى المرآة . ومن المحقق انه لم يكن يحس ألما ولا يشعر بشيء مما يشعر به المرضى حين يطرأ عليهم المرض . ولكن لاسبيل إلى تعليل هذه الظاهرة الطارئة إلا بشيء أصاب معدته أو كبده ، وهو على كل حال قد استرد شيئا من طمأنينته فعاد إلى شأنه يصلح منه ما افسد هذا الاضطراب . فلما بلغ من ذلك ما ارضاه أزمع أن خرج من غرفته دون أن يسأل هذه المرآة المشئومة عن شيء . ولكن الوسواس الخناس الذى يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس . ألقى في روعه مع كثير من اللباقة والمكر ، أن من الحق عليه أن يسأل هذه المرآة التى تعود أن يسألها دائما ، والتى تعودت ان تصدقه دائما ، فمن يدرى لعل شيئا ألم به فغير من وجهه وشكله وهو لايدرى وما ينبغى أن يظهر الناس منه على مالا يحب أن يظهروا عليه ، وقد ألقى نظرته إلى المرآة فارتدت عينه مذعورة ، ثم عادت إلى المرآة مشفقة ، ثم ارتدت وقد حلمت إلى قلبه جزعا وهلعا وإذا هو يجاهد ليحبس صيحة قد همت أن تخرج من حلقه فتملأ الغرفة من حوله ، وتدعو إليه أهل الدار ، ولكنه رد هذه الصيحة إلى مستقرها ولم يتح

لها أن تنفجر واستأنف اضطرابه ذاك . ثم ثابت إليه نفسه بعد لأى فيسرع إلى الجرس يدقه فإذا دخلت عليه الخادم رفع إليها وجهه وظل صامتا حينا يريد أن يعرف أتنكر الخادم من أمره شيئا . فلما رأى الخادم كدأبها كلما دعاها إليه قائمة واجمة تنتظر أمره لاتنكر شيئا ولا تعرف شيئا أولا تظهر معرفة ولا إنكارا قال لها فى صوت هادىء يكاد يضطرب أنبئى سيدتك انى انتظرها وأقبلت زوجه بعد حين فرأته قائما باسما ينتظر مقدمها فلما رأته أخذها منظره كما تعود أن يأخذها كل صباح وكل مساء ، وسألها هو أتنكرين من أمرى شيئا ؟ قالت متضاحكة : وماذا تريد أن انكر من أمرك ! انما أنت كما تعودت دائما ان أراك رائع الشكل جميل المنظر خلابا للنساء . إلى أين تريد أن تغدو اليوم فأنى أراك تكلفت عناية بزيك قلما تتكلفها ؟ قال وإلى أين اغدو إلا إلى عملى . قالت فإن عملك لايحتاج إلى كل هذا التأنق . ولكنه أعاد عليها قوله : أفى الحق انك لاتنكرين منى شيئا ؟ قالت مغرقة فى الضحك فى الحق انى انكر منك هذا الإسراف فى التجمل . قال فى شيء يشبه الذهول : أن هذه المرآة تنبئنى بغير ماتقولين . ثم ألقى على المرآة نظرته الخاطفة تلك وارتد عنها وجلا مذعورا يقول لامرأته التمسى لى طبيبا .

وقد عاده طبيب وطبيب وطبيب ، عادوه متفرقين وعادوه مجتمعين وفحصوا من جسمه كل ما يمكن أن يفحصوا وامتحنوا كل ما يمكن أن يمتحنوا . فلم يروا به بأسا ولم يشخصوا له علة ولم يصفوا له دواء . وقال له قائلهم : ما نرى بجسمك من بأس ، فالتمس دواء نفسك عند نفسك فما نظن إلا أن فى ضميرك شيئا يؤذيك على علم منك أو على غير علم ، وقد غيرت المرآة فى غرفته مرة ومرة ولكن المرايا كلها جعلت كلما التمس نفسه فيها ردت إليه صورة غير صورته وشكلا غير شكله ، وملأت قلبه فرقا وروعا ، وقد تسامع أعوانه وأصحابه بأنه مريض منذ لزم غرفته وانقطع عن عمله فجعلوا يسعون إليه ليعودوه يلقاه أقلهم ويرد عنه أكثرهم وينبىء أولئك وهؤلاء من أمره بغير الحق ، تخترع لهم العلل ، وتبتكر لهم الأدواء فيصدق منهم من يصدق ويكذب منهم من

يكذب ويشك منهم من يشك . وكنت من هؤلاء الأصدقاء الذين سعوا إليه وسألوا عنه ثم أتيح لهم ان يروه . وكنت اثيرا عنده كما كان أثيرا عندى لا أخفى عليه من ذات نفسى شيئا كما لايخفى على من ذات نفسه شيئا . ولقد لقيته فيمن لقيه من أصحابه ذات يوم فسمعنا منه ، وقلنا له ، وضربنا معه أخماسا لاسداس فى أمر علته . نصدق نحن فى حيرتنا ويتكلف هو لنا الحيرة تكلفا لايكاد يخفى على فلما هممنا أن ننصرف استبقانى فى لباقة وظرف فبقيت ومضى الحديث بيننا ألوانا ساعة من نهار ثم عدنا إلى علته فإذا هو يتحدث إلى بأمره كله فى وضوح وجلاء .

قلت ضاحكا . ألعلك قرأت هذه القصة الإنجليزية التى كتبها أوسكار ويلد وسماها صورة دوريان جرى ، فإن فيها ما يشبه قصتك من بعض الوجوه . قال فإنك تعلم أنى لاأقرأ الانجليزية ولا أقرأ لغة أوروبية ولا أعرف ان هذه القصة قد نقلت إلى العربية . قلت : أولم يتحدث إليك قط متحدث عن هذا الكتاب وكاتبه . قال . سمعت أطرافا من الحديث عن أوسكار ويلد ، ولكن لم أسمع عن هذا الكتاب من كتبه قليلا ولا كثيرا فحدثنى أنت عن هذا الكتاب قلت : لقد قرأته منذ زمن بعيد وأذكر أنه يعرض على قرائه قصة فتى حسن رائع الحسن ، جميل بارع الجمال ، اتخذ له صديق مصور ، صورة تطابق شكله جمالا وروعة . وقد اقترف هذا الفتى فى مستقبل أيامه سيئات كثيرة واجترح أثاما مختلفة ، فبغضت إليه نفسه أشد البغض ، وقبحت صورته المصنوعة فى عينه أشنع التقبيح ، فنفاها من حجيرات داره وغرفاته إلى حيث ينفى سقط المتاع . ولكنه كان يلم بها من حين إلى حين تزايدا من بغضه لها وسخطه عليها واستعذابا لهذا السخط وذلك البغض . ثم أصبح الناس ذات يوم فرأوه مقتولا إلى جانب صورته ، أراد ان يمزق الصورة فمزق صدره ، وقد اراد أوسكار ويلد فيما أظن ان يصور تأثير الندم على ما يقترف من الآثام فى بعض الضمائر والنفوس ، فلم تكن هذه إلا مرآة لضمير دوريان جرى . رأى فيها ما كان يملأ ضميره من السيئات المنكرة والجرائم البشعة .

قال صاحبى فى صوت يأتى من بعيد : وما أنا وهذه القصة . قلت فى

صوت يأتى من بعيد أيضا : خشيت أن تكون قد قرأتها أو سمعت عنها فأثرت فى أعصابك تأثيرا سيئا ، فما أكثر ما تؤثر الكتب قيمها وسخيفها فى أعصاب الناس ، فتحملهم على غير ما أراد المؤلفون أن يحملوهم عليه . قال صاحبى وعلى ثغره ابتسامة حزينة هون عليك ، فانى لم أقرأ هذا الكتاب ، ولم أسمع عنه ، ولم أتأثر به قليلا ولا كثيرا ومع ذلك فإن من حقه أن يقرأ ، قلت : وقد ندمت بعد ذلك على ماقلت - فالتمس فى أثناء نفسك وأحناء قلبك خطأ لعلك قد دفعت إليه أو مساءة لعلك قد قدمتها إلى برىء . فإنى أعلم أنا نجهل من أمر الضمير الإنسانى أكثر مما نعلم ، ومن يدرى لعل فى ضميرك الخفى ندما على شىء أتيته ثم أنسيته ولعلك ان استكشفته ان تصلحه وتستغفر الله منه فتقل هذا الندم الذى أخشى أن يكون هوالذى ينغص عليك الحياة . وتركت صاحبى حائرا مبهوتا ثم انبئت بعد أيام أنه يمرض فى بعض المستشفيات . فلما سألت عن جلية ذلك قص على محدثى عجبا من الأمر . فقد كان صديقى هذا البائس من قوم كرام مات أكثرهم وبقى أقلهم . وكان الذين ماتوا - رحمهم الله - يرتفعون عن الصغائر ويمتنعون على الدنيات وتأبى نفوسهم فيما تأبى جحود العارف ، وانكار الجميل . ورثوا ذلك عن أبائهم وأحبوا ان يورثوه أبناءهم فحال بينهم وبين ذلك هذا التطور الحديث الذى غير مقاييس الأشياء ، وادار أعمال الناس وأقوالهم على المنافع العاجلة والمآرب القريبة لاعلى ما كان يألف أباؤنا من رعاية الحق وتقدير المعروف ، وكان صديقى هذا البائس أحرص الناس على ان يشبه الذين سبقوه من قومه فى كل ما كانوا يأتون ويدعون من الأمر ، ولكن أحداث الدهر ، وخطوب الأيام وما تحمل من رغبة ورهبة ومن إغراء وتنفير كانت أقوى من خلقه وإرادته فلم يستطع ان يكون خليقا بالذين سبقوه من قومه . وإنما كان خليقا بالذين عاصروه من أترابه كان قومه يستحيون من أنفسهم قبل أن يستحيوا من الناس وكان هو يستخفى من الناس ولا يستخفى من ضميره . ولا من الله وهما معه أينما كان . فلما قصصت عليه قصة أوسكار ويلد كنت كأنما كشفت عن نفسه الغطاء فأصبح يتحدث إلى

امرأته وإلى خاصته بأن هذا الوجه القبيح الذى كان يراه فى المرآة لم يكن وجهه ، فوجهه مازال جميلا رائعا وانما هو مرآة ضميره لأن ضميره بشع دميم .

ثم يمضى فى حديثه فيقول : لا تنكروا مما أقول لكم شيئا فإنى لا أرى هذا الوجه البشع إذا نظرت فى المرآة فحسب بل أنا أراه كلما خلوت إلى نفسى . أراه يحمله جسم كجسمى وأراه يجلس إلى غير بعيد ، ينظر إلى شذرا أول الأمر ثم لايزال يرفق بى ويظهر الرقة لى حتى اطمئن إليه فيحدثنى فى صوت هادىء رقيق عن سيئات تقدمت بها إلى الناس فيما مضى من الدهر ثم يقول لى فى صوت هادىء يخيفنى أشد الخوف ليتك لم تفعل . فقد كنت أرانى جميلا فجعلتنى قبيحا بشعا ، وكنت أرانى سعيدا فجعلتنى شقيا بائسا فقد احتملت وحدى قبحى وبشاعتى وشقائى وبؤسى ، ثم أعيانى احتمال هذا الثقل فرأيت أن تشاركنى فى النهوض به فسألزمك منذ الآن كما يلزم الظل صاحبه ، وأى غرابة فى أن يلزم الضمير صاحبه ، وكان صديقى البائس يقول ذلك لأهله وخاصته فى صوت غريب يملأ قلوبهم خوفا وأشفاقا ورحمة وعطفا ، ثم كان يلح عليهم فى ألا يخلوا بينه وبين نفسه فلزموه وأطالوا البقاء معه ولكن بغضه لظله هذا . أو لضميره هذا جعل يعظم ويشتد كما أن حب ظله وضميره له جعل يعظم ويشتد أيضا ، فقد رأى ضميره فى المرآة أول الأمر ثم جعل يراه فى الخلوة بعد ذلك ثم أصبح يراه حين يخلو إلى نفسه وحين يحيط به أهله وخاصته وإذا أمره ينتهى به إلى الجنون الثائر أو إلى ما يشبهه وإذا أهله مضطرون إلى أن يمرضوه فى بعض المستشفيات التى تعالج فيها الأعصاب المريضة .

ليتنى لم أكشف لصاحبى عن نفسه الغطاء ، استغفر الله ماذا أقول . وهل يزيد الكتاب على أن يكشفوا للناس عن نفوسهم الغطاء

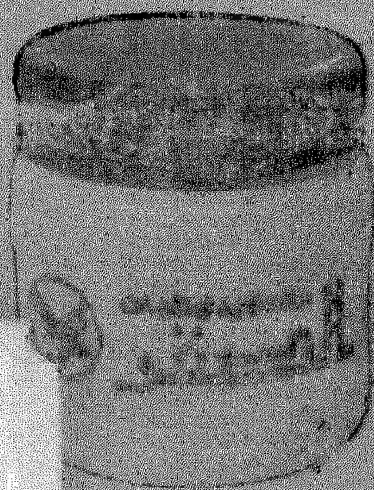
رقم الايداع بدار الكتب ٧٢٩٢ / ١٩٨٩

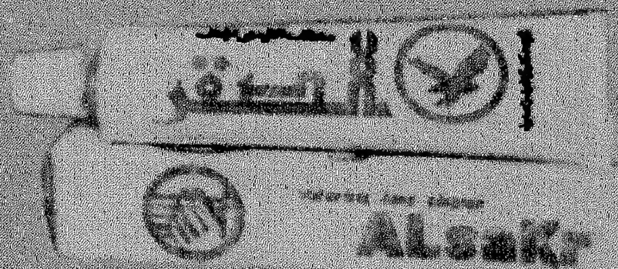
الترقيم الدولى ٣ .. ٣٢٣ - ١٢٤ - ٩٧٧ ISBN

الآن بالأسواق

المنظف السحرى
الجاف
متعدد الأغراض

الصقر





يزيل الأوساخ والبقع الشحمية بأمان
ويترك الأيدى .. نظيفة .. ناعمة .. معطرة ..

لأيدى الحرفيين - لغسيل الملابس النطرية - لتنظيف الموبليا
لتنظيف القيشانى والسيراميك - لتنظيف أجهزة البوتاجاز

إنتاج **شركة الاسكندرية للزيوت والصابون**